IBRAHIM AL-KONI



إبراهيم الكوني

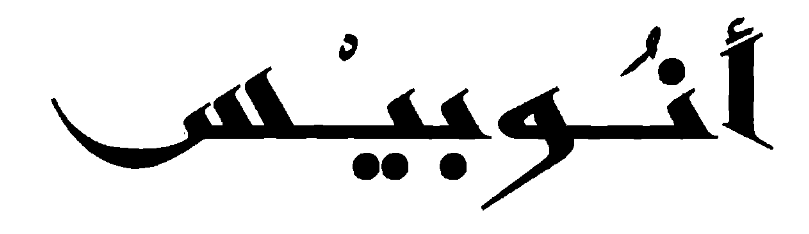
أنوبيس







إبراهيم الكوني





أنوبيس

أنوبيس / رواية عربيّة
إبراهيم الكوني / مؤلّف من ليبيا
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب :٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali @ nets. com. jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®
لوحة الغلاف : أنوبيس « إله الموتى » يتفقّد الميّت
من رسومات فنّاني ما قبل التاريخ / مصر
التنفيذالطباعيّ :
مطبعة سيكو / بيروت ، لبنان

من المؤلف

لكفاحي في سبيل الحصول على هذه الأسطورة رواية أخرى لو قُدّر لي أن أكتبها لفاقت " أنوبيس " حجماً .

فقد سمعتُ نُتَفاً منها من ألسنة عجائز صحراء " تينغرت " زمن الطفولة المبكّرة . وسمعتُ أجزاء أخرى من أشياخ قبائل " آزجر " زمن الطفولة المتأخرة . وما سمعته من أسياد القوم أشعل فضولي لسببين :

أوّلهما عهد الأسطورة الذي يرجع إلى أزمنة بدائية سبقت أقدم أساطير القوم المتمثلة في " تانس ووانس " مما يستهوي كل شاعر لا يرى في حياته بين الناس إلاّ أسطورة ، ولا يرى في الأسطورة إلاّ الحياة .

وثانيهما : الحقيقة ، حقيقة الأسطورة كمتْنٍ نال منه الزمان ، وحوّرته روايات الألسن ، وحرّفه مزاج التاريخ ، فزعزع حقيقة الأصل ، وبلبل تسلسل الأحداث ، وشوّش السياق ، كما يحدث لكل موروث شفهي تدّعي أبوّته أمم كثيرة متصارعة تتآلف حيناً وتتنازع أحياناً .

وأذكر أنني عندما نزلنا الواحات وبدأت أكتشف طلاسم كتابة أخرى (هي العربية) غير رموز " تيفيناغ " الأسطورية التي تعلّمتها كما

يتعلمها كل أبناء الطوارق (من الأم) ، تململ في قلبي الحنين للوقوف على حقيقة " أنوبي " ، فخرجتُ للبحث عنه عبر صحرائي الكبرى اللانهائية كما يخرج المغامرون من طلاّب الكنوز الذين تعجّ بهم الصحراء في ذلك الزمان ، مع فارق صغير هو أن هؤلاء اعتادوا أن يهتدوا إلى مواقع الكنوز بخرائط ممهورة في رقع الجلد ، وكنزي وصيّة خفيّة جذرها في قلبي وجذعها مغمور في أفواه أقوام يرتحلون في متاهة الصحراء . وكان عليّ أن أطاردهم ، وأجدُّ في أثرهم ، وأترحّل معهم إذا شئت أن أقف على حقيقة كنزي . وهذا ما فعلته . فقد طُفْتُ الأركان متنقلاً على ظهور الجمال ، وعبرتُ الصحراء برفقة بعض الأقرباء لأرتاد أبعد القبائل في " آزجر " و " آير " و " أضاغ " و " آهجّار " لأستنطق الزعماء والأكابر والحكماء .

ففي " تينبكتو " كشف لي بعض الأشياخ عن رقع جلدية مخفيّة في صناديق خشبية عتيقة ، تهرّأت وتآكلت وبَهَتَ لون رموز "تيفيناغ " المطبوعة في صفحاتها ، وقالوا لي أن هذا المتن يُعّد أقدم تدوين للأسطورة ، وهو منقول (حسب ما يُروى) عن المتون الموجودة في كهوف تاسيلي ، ومغاور " آكوكاس " وصخور " مساك صطفت " التي شوّهتها الأمطار والسيول والرياح المحمّلة بالرمال وكذلك أيدي المخرّبين والأشرار .

وفي " أغاديس " نبّهني الرواة ودهاة المراعي إلى أمر ، رأيته على جانبٍ من الأهمية ، عندما أكّدوا على عسر استخلاص سيرة

السلف " أنوبي " (أنوبيس) من أساطير الأقوام الصحراوية ، لأن السيرة كثيراً ما تداخلت مع أساطير الملاحم وسير القدماء . ولكني لم أيأس . فدوّنت كل ما سمعته من ألسنة الرواة ، واستصحبت أصحاب الدهاء إلى المغاور لفكّ رموز ما نجا من التلف ، ومقارنتها بروايات الشفاه . كما دوّنت روايات الوثائق سواء تلك التي ترجمها لي أهل العرفان في " تنبكتو " من اللغة البدائية الأقدم ، وسواء مما سمعته من عجائز قبائل " آهجار " في " تامنغست " .

ثم قضيت زمناً أطول في تنسيق الروايات ، وتدقيق الأزمنة ، وترتيب أحداث السيرة ، وإعادة صياغتها باللغة الأم . ثم تركتها زمناً أطول ، و لم أعد لمعاندتها إلاّ في الأعوام الأخيرة عندما أنهكني الترحال بين عواصم العالم (لا بين واحات الصحراء هذه المرّة) ، ووجدتُ أن في سيرة الجدّ الأوّل " أنوبي " (أنوبيس) ملامح من سيرتي (وسيرة كلّ إنسان ظامئ إلى الحقيقة) ، فنقلتها من اللغة الأم إلى لغة الضاد ليقيني بأن رحلة " أنوبي " ما هي إلاّ رحلة الإنسان في هذه الصحراء التي تسميها الأمم " العالم " ، وشقاء " أنوبي " في بحثه عن لغزه ما هو إلاّ شقاء الإنسان في بحثه عن اللغز ، وقبيلة " أنوبي " السريّة ما هي ، في حقيقتها ، إلاّ القبيلة البشرية التي لم تجد سرّها منذ ذلك التاريخ البعيد حتّى هذا اليوم .

الألب السويسري

٢٠٠٢ م

إلى روح الأب الذي كان روحاً لكل الآباء :

أ.ب

" تقول الأسطورة (إيزيس وأوزوريس) أنّ أنوبي (أنوبيس) ابن أوزوريس أيضاً ، ولكنّه الابن غير الشرعي ، لأن أوزرويس عاشر نفتيس ، قرينة شقيقه " ست " عن طريق الخطأ ، فأنجب منها أنوبيس الذي صار الإله الحارس على الموتى في العالم السفلي " .

أَخْبارُ زَمانِ المَهْد

" وجَبَل الرّب الإله آدم تراباً من الأرض ، ونفخ في أنفه نسمة حيـاةٍ
فصار آدم نفساً حيّة "

التكوين

(٢ : ٧)

١. الشروق

استيقظتُ من غفوتي مع الشروق .

فتحتُ عيني بعد عناء فرأيتُ ألقاً ذهبياً خجولاً يفلق امتداد الأفق ليغزو البرّية الأبدية العارية المفروشة بالحصباء الرمادية . أدهشتني كآبة العراء ولكن صدري فاض بالسعادة لمرأى سيول الضوء الأصفر تتدفق في الأرض المكشوفة لتغمر دنيا مهيبة ، عارية وخفيّة برغم العريّ ؛ ربّما لأنها تمتد وتتمدّد إلى الأبد فلا يعترض سبيلها الموحش شجر أو حجر حتّى تتواصل في سماء زرقاء عارية أيضاً وصارمة أيضاً كأن طرف الأعالي راق له أن يحاكي طرف الأسافل فاستعار منه العريّ والغموض والصفاء .

ولولا الضياء المذهل الذي رأيته في ذلك اليوم يتسكّع بينهما بشقاوة أهل الفضول لحسبتهما دمية من ذلك الطراز الماكر الذي يحسن التنكّر ليخدع الصغار . فقد رأيت في عناقهما المحموم سرّاً كان عليّ أن أعاند طويلاً حتى أكتشف أنه طلسم محكم الإغلاق ، بل لأكتشف أني أبتعد عن حقيقة السرّ كلما ظننت أني اقتربتُ منها حتى أيقنت أن لحظة لقائي مع تلك الدمية الغامضة في ساعة الشروق تلك لم تكن في مشواري كلّه سوى اللحظة الحقيقية الوحيدة التي

أباحت لي فيها السماء وقرينتها الصحراء بسرّها الذي لم يكتب لي أن أستعيده بعد ذلك اليوم أبداً .

ربما كان ذلك سبب تلك الضحكة التي أفلتت منّي يومها والتي أثارت في الخباء جعجعةً زعزعتني فعبّرتُ عن فزعي بنوبة بكاء استمرّت طويلاً . ولكن الكاهنة التي رأيتها تقف فوق رأسي فعلتْ كل ما بوسعها كي تعيدني إلى صوابي .

كانت تبدو غامضة أيضاً ، ولكني رأيتُ في سيمائها سحراً يليق بملّة الكاهنات حقّاً . ليس سحراً وحسب ما رأيته في سيمائها ، ولكنّي رأيت ما هو أنبل من السحر ، ومن الشعر ، ومن حكمة الثدي التي أمتصّ منها غذائي الشهيّ لأنها لم تكن في الحقيقة كاهنة وحسب ، ولكنها الرّبة التي كانت تطعمني من جوع كما كانت تؤمنني من خوف كما اكتشفتُ فيما بعد . بلى . في سيماء الرّبة رأيت إيماءً جليلاً كان لابد أن يتدحرج قرص الشمس في سماء الصحراء طويلاً كي أدرك أن إسم الإيماء هو : الرحمة !

ولكن فلنرجئ الخوض في سيرة الرحمة إلى حين ، لأني لم أستكمل بعد لغوي عن سلسلة الأعاجيب التي رأيتها عندما فتحت جفني في يوم الشروق ذاك اليوم .

فعندما انشقّ الأفق المزموم عن أوّل دفقة من فيض النور ، وانفصمت العُرى الخفيّة التي شدّت ضلفة الأعالي إلى ضلفة الأسافل، فتبدّدت فلول الظلمات التي كانت تتلبّس دنيا الصحراء ، نفذتُ إلى

الخفاء لأرى الأعجوبة ، لأرى البسمة الخفيّة ، البسمة الحقيقية التي لم يُقدّر لي بعدها أبداً أن أراها كما رأيتها في ذلك اليوم ، ولم يقدّر لي أيضاً أن أنساها ، وكان عليّ كلّما استعدتها أن أحيا الزلزلة المجهولة في كل مرّة لأني أدركتُ بعد فوات الأوان أن ميلاد النور في أفق الصحراء يومها لم يكن ميلاداً لقرص مهيب يطلق عليه القوم إسم "رغ " ، ولكنه كان ميلاد النور في قلبي ، كان ميلاد اللغز في نفسي، لأني لم أدرك إلاّ بعد أن تدفقت في الوديان سيول سخية أن الصحراء التي لثم أفقها ضوء الصبح لم تكن جرماً آخر منفصلاً عن جرمي ، وحزمة الضوء التي أفلتت من قمقمها الخالد لم تكن حقيقة أخرى غريبة عن حقيقتي ، ولكن الحسام الذي زعزع ظلمة الباطل ووضع الحدّ للإلتئام الحميم بين سماء الصحراء وأرض الصحراء لم ينبثق من مكان آخر في مجهول الأبد ، ولكنه انبثق من جوفي ، وما الفرح العميق الذي استبدّ بي لحظتها ، ولم يكتب له أن يتكرّر في كل أزماني التالية ، لم يكن إلاّ استجابة غامضة لإحساسي بذلك اللغز الذي أنبأني بأن ميلاد الضوء في الأفق لم يكن إلاّ ميلادي ، وانبثاق قرص " رغ " من البرزخ المزموم لم يكن إلاّ نبوءتي ، واستحمام جسد الصحراء بسيول النور لم يكن إلاّ معجزتي ، وتلك اللعبة المدهشة التي سميت في لسان الأقوام شروقاً لم تكن إلاّ شروقي !

فكيف لا تتبسّم شفتاي إذا كان قلبي قد تبسّم ؟ وكيف لا يتبسّم قلبي إذا كان النور الخفي هو الذي تبسّم ؟

بلى ، كان هذا هو سرّ تلك البسمة التي أعقبتها ضحكة خلخلت بال الخباء فاستجاب لها أهل الخباء بالجعجعة التي قوّضت أركان السكينة ، فبكيت فزعاً من انهيار بنيان السكينة الذي لم يكن إلاّ بيتاً ، فوجدت الربّة تأخذني إلى حضن الرحمة ، وتصنع لي من يديها أرجوحة ، بل وتبرطم بالأصوات ، وتهدهدني بالمهمهات الرتيبة الغامضة لتحتال على أمري وتستدرجني إلى السكون كرّة أخرى .

ولكن جعجعة الخباء كانت أكبر في الزمن التالي الذي عَلاَ فيه كوكب الأعجاز ليقطع عبر الفضاء مسافة فوجدتُ نفسي أصيح رغماً عني بهتاف قرأ فيه أهل الخفاء نبوءة :

- إيلا ! إيلا* !

ساد صمت عميق قبل أن تعلو الضوضاء . تكلّم الشبح الذي احتلّ مكاناً إلى جوار الربّة .

- هل سمعتِ ؟

فأجابته الكاهنة دون أن تكفّ عن مداعبتي :

- سمعت !

استبدّ الصمت مرّة أخرى ، ولكن الشبح لم يستسلم :

- لقد تكلّم !

* إيلا : المالك ، الموجود ، الإله (لسان الطوارق) .

فأجابت كاهنة البيت ببرود يخفي سعادة لا تُخفى لأنها سعادة من نفس الجنس الذي لا يطاق :

- تكلّم !

عاد الصمت يستولي على الدنيا ، ولكن قَدَر الصمت أن يموت في كل مرّة برغم أنه يراهن دوماً على ذلك اليوم الذي سيحقّق فيه غلبة أبدية . مات الصمت هذه المرّة أيضاً لأن الشبح بجوار الركيزة أبى إلاّ أن يتكلّم :

- ماذا قال ؟

أجابت الرّبة وهي تطوّق جسدي بذراعيها :

- قال النبوءة !

سكت الشبح القابع بجوار الركيزة طويلاً قبل أن يتعجّب :

- النبوءة ؟ !

هَدْهَدَتْني ربّة الرحمة وضمتني إلى الحضن فأحسست بدفء حميم لا يُقارن إلاّ بالدفء الحميم الذي استبدّ بي ساعة فتحت لي السماء قلبها لتبوح لي بسرّها وبسرّ قرينتها الأرض . ولكنّها أجابت أخيراً :

- تكلّم بالاسم !

- الاسم ؟ ولكن أيّ اسم ؟

سمعتُ في صوت الرّبة نبرة الإكبار :

- الاسم الذي لا يأتيه الباطل لا من أمامه ولا من خلفه !

– ولكن هل نبوءة الاسم فأل حُسْن أم فأل سوء ؟

ولكن الرّبة لم تجب .

لم تجب لأنها قررت أن تحقّق رسالة الرحمة **فبدأت تعلّمني الأسماء** . صرختْ في أذني باعلى صوت : " رو _ رو _ رو _ رو... إسمك منذ اليوم " **وا** " (*) ثم دقت صدرها بكفّها ولْوَلَتْ في أذني : " أنا إسمي " **ما** " (**) ثم التفتت إلى الشبح القابع بجوار الركيزة وصاحت بالإسم في أذني : " أمّا هذا فاسمه " **با** " (***) ، ثم تقدّمتْ نحو مدخل الخباء خطوتين ، وشيعتني في الفضاء حتى اغتسلتُ بفيض النور المتدفق من القرص الذهبي العجيب ، وصاحت بأعلى صوت : " أمّا هذا فهو الذي لا اسم له لأنه صاحب كلّ الأسماء الذي أسميته أنت " **إيلا** " ، وسوف تسمّيه " **رغ** " يوم تنحلّ عقدة لسانك وتُؤتى القدرة مثلي على نطق الرّاء " (****) .

(*) وا : المولود ، الميلاد ، الموجود . (لسان الطوارق) .

(**) **ما** : الأم ، الفم ، الجوف ، السجيّة ، الماء ، الطبيعة . (لسان الطوارق) .

(***) با : الأب ، الروح ، العدم . (لسان الطوارق) .

(****) رغ : المشتعل ، الأصفر ، الذهبي ، الشمس ، الرّب . (لسان الطوارق) .

٢. الضّحى

بـدأتُ ، بعـون ال " **مـا** " ، أسـتعيد لسـاني الـذي أضعتـه في رحلتي المجهولة ، لأنّي تذكرتُ على نحوٍ غامض ، أنّي امتلكت هـذه العضلة المذهلة يوماً ، ولكنّي لم أعـرف كيـف فقـدتُ السـبيل إليـه . ويبدو أنّي أضعتُ سرّ اللسان في نومتي كما أضعتُ سرّ أمسي . وقد حاولت أن أتذكّر يومي الذي أنقضى ببسالة جديرة بالأبطال ، حقـاً ، ولكني لم أفز من بطولتي إلاّ بإيماء خفيّ شبيه بإيماء النبوءة الـتي قرأتهـا في سيماء السماء أثناء عناقها مع حميمتها الصحراء عندمـا استيقظت لأشهد ميلاد ال " **إيلا** " مـن بطـن الأفـق . وقـد جرّبـتُ أنّـي كلمـا استبسلتُ لنيل زماني الضائع تبدّت أمامي الرؤى الجنونية ، وتزعـزع بدني بالبلبلة ، وأصاب رأسي الصداع ، فأنجو مـن أشباح الظلمـات بالعودة إلى رحاب الصحراء حتّى لا أفقد صوابي .

كـان يفلـق دهلـيز الظلمـات في بعـض الأحيـان قبـس فجـائي فينقشع النسيان ، وتتكشّف المتاهة عن الوعد ، عن وطن الوعد ، عن حقيقة الزمـان الضـائع . ولكنّـي لاحظـتُ أن عمـر الوحـي لا يـدوم طويلاً أبداً . بل أن وميض القبس لا يزيد عـن عمـر الغمضـة لأنـه لا يبرق إلاّ لينطفئ ، فيحترق قلبي بالحسرة ، وتسري في بلعومي المرارة،

لأنّي جرّبتُ أيضاً أن لمعاتَ الإلهام تلك ، على ندرتها ، **ليس كمثلها شيء** ، فأستعيد ذكراها لأتلذّذ بالرؤيا ، وكان عليّ أن أدبّ في الصحراء زماناً آخر كي أعلم عن سرّها قَدْراً ، لأن على الوديان أن تتدفّق بسيول كثيرة قبل أن أعلم أن ومضات القبس تلك لم تكن إلاّ ما يسميه كهنة الصحراء في لغتهم الخفيّة : **نبوءة !** تلك النبوءة التي تبقى إلى الأبد لغزاً حتى لو وجدنا للغزها تفسيراً ، لأن النبوءة ، في يقين هذه السلالة الرهيبة ، لا تكون نبوءة إذا لم تكن لغزاً . واللغز لا يكون لغزاً إذا وجدنا له تفسيراً !

لهذا السبب رأيت أن أتخلّى عن سيرة أمسي الذي أفقدني لساني لأتحدّث عن سيرة يومي الجديد الذي سمعتُ الأغيار يسمّونه **ميلاداً** . حتّى الرّبة التي زغردت في أذني بتعويذة الاسم تسميّه ميلاداً. وبرغم استنكاري قررتُ أن استخدم لغة الكُلّ لأنّي تعلّمتُ أن المخلوق إذا وجد نفسه بين الخلق فليس من حقّه أن يبدّل من الأمر شيئاً ، كأنْ يبتكر أسماء جديدة بدل الأسماء الشائعة ، أو كأنْ يرتكب خطيئة تسمية الأشياء بأسمائها أيضاً ، لأن الخلق سيعدّون ابتكار الأسماء بدعة كريهة ، وعدواناً على الأعراف التي سنّوها عبر أجيال وأجيال . أمّا إذا سوّلت له نفسه بأن يسمّي الأشياء بأسمائها الحقيقيّة فذلك إثم آخر ، لأن القوم سيعدّون الأمر ليس استكباراً منكراً وحسب ، ولكنّهم سوف يرون في هذا العمل تجديفاً في حق الناموس الجليل الذي حثّت متونه الضائعة على إكبار لغة التورية

والإخفاء إلى حدّ حوّل جلّ وصاياه إلى جملة من القمائم والطلاسم والرموز التي تستعصي على الفهم . وإذا كان القوم قد دأبوا على الاقتصاص من صاحب البدع الذي يبتكر الأسماء بالرجم حتى الموت، فإنهم لم يتوانوا عن ابتكار قصاص أقسى ضد المكابرين الذين سوّلت لهم نفوسهم أن يخالفوا وصايا الناموس الضائع بتسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية ألا وهو المنفى ليقينهم بأن المنفى قصاص أفظع من الموت ، لأنه ليس ثمّة أشقى من إنسان وُلد **إنساناً** ثم وجد نفسه في الصحراء الأبدية وحيداً ، معزولاً ، عاجزاً عن استخدام العضلة الوحيدة التي تثبت أنه **إنسان** وليس حجراً أو شجراً أو ضبّاً أو مخلوقاً من سلالة الجان برغم أن الكثيرين يجزمون أن أهل الملّة الأخيرة يحسنون استخدام عضلة اللسان .

وأعترف أن إجلال اللسان هذا استفزّني وأيقظ مواجعي القديمة الناجمة عن سرّ فقداني للسان ، فاقترفت خطيئة استنطاق الخفاء مراراً لأقف على حقيقة ماحدث . ولكن الخفاء يمهل حقّاً ، ولكنه لا يتسامح إلى الأبد ، فبدل أن يكشف لي عن لغزي عاقبني جزاء عنادي بداءٍ اسمه **الهمّ** .

وقد بدأت أعراض الدّاء باكتئاب مبكّر استبدّ بي منذ العهد الذي وجدت فيه نفسي مطوّقاً بلفافات القماط ، محصّناً بأنصال السكاكين التي أحاطتني بها ال " ما " لتحميني من عدوان أشرار الجنّ. ثم جاء العهد الذي تحوّل فيه الإكتئاب إلى نوبات مريرة من

البكاء . وعندما جاء الزمان الذي تحررت فيه من اصفاد المهد ، وسلّمت أمري لإغواء الصحراء الخالدة ، ووجدتُ نفسي معزولاً ، مهجوراً ، لا حول لي ولا قوّة ، تضاعف إحساسي بالهمّ ، فمشيت في صحرائي وحيداً ، ولهوتُ في صحرائي وحيداً ، وهششت أغنامي في صحرائي وحيداً ، وتعلّمت السلوى باصطياد الضباب وحيداً ، وغنيتُ اللحون الشجية وحيداً ، حتى صارت لي وحدتي أنيساً ، وأباً ، وأمّاً ، ورباً ، كلّما عاشرتها أمداً أطول ، أزدادت علاقتي بها عمقاً وثراءً وغموضاً . وكلّما ازدادت العلاقة عمقاً وثراء وغموضاً ، ازداد إحساسي بالهمّ عمقاً وثراءً وغموضاً حتّى أيقنت أن الهمّ ربّ حقيقي لابدّ أن يسبق كلّ الأرباب ، لأنه هو الذي يسوق الخلق إلى الأرباب ، وأيقنت أيضاً أن من لاهمّ له يستحيل أن ينال في دنيانا ربّاً.

وقد اكتشفت أيضاً أن ذلك الجنس من الهمّ متاهة عسر الخروج منها ليس بيسر الدخول إليها، ومن اعتادها ، وقطع في سبيلها شوطاً ، فلابدّ أن تتصدّع في قلبه الآنية الخفيّة إلى الأبد إلى حدّ أنّه لن يُكتب له أن يذوق طعم السعادة في دنياه كلّها إلاّ ممزوجة بجرعة من همّ : ذلك الدّاء الذي لم يكن في مَنْبته إلاّ سؤالاً بريئاً عن المنْبت ، ثم انقلب بالإدمان حنيناً مريراً . والحنين لابدّ أن يقود مريده إلى ذلك المنفى المسمّى في لغة القوم همّاً ، والذي وضعه الناموس الضائع شرطاً لنيل كنز اسمه **الرّب** .

٣. الرَّواح

يبدو أن للمنبت شرائع لا تقل عن شرائع الناموس سلطاناً . ذلك أنّي بدأت أكتشف أني لم أرث الولع بالهجرة إلاّ من هذه الساحة التي مثّلها الشبح القابع بجوار الركيزة والذي نعتّه " **ما** " بـ "**با** " يوم لقّنتني الأسماء . وهو مخلوق لم أره حقّاً إلاّ خطفاً ، فحقّ لي أن أسمّيه بيني وبين نفسي شبحاً . وبرغم أنّه لم يعلّمني الأسماء كما علّمتني الـ " **ما** " ، ولم يضمّني إلى صدره كما ضمّتني ربّتي الحميمة ، ولم يغمرني بفيوض رحمته كما غمرتني كاهنة الأزل ، إلاّ أن يقيناً تململ في صدري منذ فتحت عيني لأشهد في ذلك الزمان شروقي حدّثني بوسوسة لجوجة تقول أن في هذا الطّيف البائس يكمن سرّي، وإذا لم أعرف لملاقاته سبيلاً فسوف يكون التيه سبيلي . لهذا السبب، على ما يبدو ، تلبّستني تلك الحمّى الجنونية التي بدأت منذ ما يسمّى في لسان القوم مهداً ، وتخلّلت مراحل سيرتي كلّها ، ولا أحسب أني سأشفى منها أبداً ، لأن ظمئي إلى الـ " **با** " لم يُمتْه الزمان الذي اعتاد أن يميت كلّ شيء في دنيانا ، ولكنه ، يا للعجب ، تغذّى بالزمان ، وتحوّل هاجساً ، حنيناً ، إيماناً ، أنّي اكتشفت أنه تدفق في دمي كما يتدفق السيل في الوديان ليصبّ في ذات اليم المجهول الذي

أسميته منذ قليل **همّاً** .

ولهذا لم يكن غريباً أن يكـون أول سـؤال أطلقتـه في وجـه الـ **"ما"** ما إن استقامت في فمي عضلة لساني هو : " من أين جئت؟ " . وكان جواب الأم : " كما يجيء الناس " . لم أقنع بالإجابة فسألتُ : " وكيف يجيء كلّ الناس ؟ " . أجـابت : " مـن أبٍ وأمّ " . قلـتُ : "أنت الأم ، ولكني لماذا لا أرى إلى جواري الأب ؟ " . قالت : "لأن قَدَر الآباء الغياب " . تعجّبتُ : " لماذا على الآباء أن يرتضوا الغيـاب قَدَراً ؟ " . أجابت : " لأن الآباء كالأرباب لا يكونون آباء بالحقّ إن لم يبتعدوا ! ". قلـتُ : " ولكنّـي رأيتـه يومـاً ، رأيتـه لمحاً ، شـبحاً ، أقسم ! " . قالت : " لن يكون أباً إن لم تـره ، الأب كـالربّ لابدّ أن يُرى يومـاً ليبرهن على أنّه أب ، لكنه لابد أن يختفي أيضـاً ليدلـل على أنّه أب ! " . تعجبتُ : " ولكـن لمـاذا عليـه أن يختفـي إذا كـان يستطيع أن يظهر ؟ " . أجابت : " لأننـا لا نقنـع حقّـاً إلاّ بمـا نـراه ، ولكنّنا لا نؤمن إلاّ بمـا لا نـراه " . قلـتُ : " ولمـاذا لا يبقـى بيننـا إلى الأبد ؟ ". قالت : " لأنه يجـيء ليبلّغنـا الرسـالة " . تسـاءلتُ : " أيّـة رسالة ؟ " . أجابت : " الرسالة التي تقول أن خيار الأب الهجرة لأنـه يريـد أن يكـون كمـا يجب أن يكـون " . قلـت : " مـاذا يريـد أن يكـون؟" . قـالت : " أن يكـون معبـوداً لا محبوبـاً ! " . تعجبـتُ : "ولماذا لا يكون معبوداً ومحبوباً معاً ؟ " . أجـــابت : " لأننـــا نعبـد مـا لا نرى ، ولكنّنا لا نحبّ إلاّ ما نرى ! " . تساءلتُ : " ولكنّـي ،

يا مولاتي ، لا أفهم ! " . سكتتْ . اكتأبتْ . رنتْ إلى الخلاء المغمور بضياء " رغ " المجيد . شيّعتْ رأسها إلى السماء العارية حتى انحسر لحافها عن شعرها المضفور في جدائل فاحمة كثيفة قالت : " نحن نعبد الأسماء ، ولكنّنا لا نحبّ إلاّ الصحراء ! السماء لنا أب نعبده لأنه بعيد . نعبده لأننا لا نعلم من أمره شيئاً . ولكنّنا حيثما التفتنا وجدنا الصحراء إلى جوارنا . لذلك نحبّ الصحراء لأننا نراها أُمّاً ! "يئستُ فقرأت في يأسي الهمّ . وأدهشني أنّها لم ترحمني وقتها وهي التي تعلمتُ من يديها الرحمة . سرحت ببصرها عبر الفراغ المغمور بفيض معبود الشروق وقالت كأنها تخاطب الخلاء بنبوءتها القاسية : " بلى. نحن نعبد الآباء ، ولكنّنا نحبّ الأمهات ! " .

لم تدهشني نبوءتها عن حبّ الأمّهات ، ولكني لم أفهم لماذا تنقلب لهفتنا إلى الآباء حنيناً ، ولماذا ينقلب الحنين همّاً إلاّ بعد أن أرقت دماً في بحثي عن الشبح الضائع . فقد نال منّي الشوق يوماً حتّى امتنعتُ عن الطعام ، وامتنع عنّي النوم ، فلم أجد الترياق إلاّ بالخروج .

سلكت سبيل الإبل حتى اهتديت إلى الرعاة في المراتع المجاورة، فأخبرتهم بالحقيقة . قلتُ لهم إنّي خرجتُ بحثاً عن أبٍ لم أره إلاّ شبحاً عندما كان يدخل بيتنا كاللّص متسلّلاً ، ويفرّ منه قبيل الفجر متسلّلاً ، ثم بدأت زياراته تقلّ كلّما قطعتُ شوطاً أبعد في صراط معرفة الحقّ من الباطل حتى أنّي ما عدتُ أصدّق أنّي سمعته يوماً

يحاور الأمّ ، أو رأيت شبحه يقبع بجوار الركيزة . فبماذا كافأني الرعاة جزاء اعتراضي ؟ لقد استخفّوا بي وتضاحكوا في وجهي وقالوا أنني سوف لن أعرف للسعادة طعماً لأن البحث عن الأب في الصحراء لعنة . وعندما لمحوا الهمّ في عيني تقدّم منّي أقدمهم وأخذني إلى الخلاء . هناك أوصاني بأن أعود على عقبي إذا شئت أن أنعم بهدوء البال ، لأن الأب مبعوث مجهول رسالته أن يأتي بأمثالي إلى المتاهة التي سمّتها الأجيال صحراء، ثم يعود على عقبيه ليختفي إلى الأبد . قال أيضاً أن الأب احتال على النسيان فدسّ في قلبي تميمة اسمها الذاكرة لأجده فيها كلّما هزّني الحنين . وعندما قرأ في مقلتي ارتياباًطأطا زمناً ، ثم رفع نحوي بصراً كئيباً ليقول :

"إيّاك أن تبحث في الصحراء عن أب ! هذا يجلب النحوس !".

حدّق في وجهي مليّاً فقرأ في عيني تصميماً ، بل استنكاراً ، قبل أن يرى الرجفة في جسدي ، فقرّر أن يستسلم ، نفث من صدره سعيراً قبل أن يقول بلسان الرحمة : " حسناً . عبثاً نحاول أن نثني إنساناً عن أمرٍ إذا كان في الأمر قَدَره . تستطيع أن تسلك سبيل القوافل المتجهة إلى الواحات الجنوبية إذا كنت لا تخشى الظمأ ، وتستطيع أن ترابط له على بئر " وانزر " إذا كنت لا تخشى التيه ، وتستطيع أيضاً أن تعود على عقبيك لتحوّل حنينك هناك إلى غناء إذا كنت تريد النجاة! " . ولكنّي لم أغنِّ لا لأنّي لم أحسن الغناء ، ولكن لأني لم أعلم أن بوسع اللحون أن تشفى من الدّاء ، فانطلقت غرباً لأرابط

للأب على بئر " وانزر " المجاور عملاً بوصية حكيم الرعاة .

سرت مع حلول الرواح لأدرك المكان قبيل الغروب . ازداد عراء الأرض كآبة وصرامة وعبوساً ففررت ببصري إلى السماء . كانت عارية أيضاً ، وقاسية أيضاً ، ولكن في قساوة السماء دائماً عزاء خفيّ . تغمرها فيوض " رغ " السخية في زمن الرَّواح فتزداد صفاء وزرقة وعمقاً . في المسافة التالية شقّ السبيل الذي حفرته جمال القوافل بأخفافها الثقيلة أرضاً طينية مفروشة بحجارة مشوية بقصاص القرص الأبدي ، موسومة هنا وهناك بمسارب بائسة شقّتها الأمطار الشحيحة في المواسم النادرة . لهذا السبب لا تتبدّى هذه الشقوق في أرض حتى تختنق وتتبدّد في المسافة التالية ، لأن الأمطار التي تحفرها سرعان ما تنقشع أو تتبخّر أو تمتصّها الأرض الظمأى منذ الأزل ، فتتلقفني المتاهة من جديد . ولكن المتاهة لا تبخل على العابر، بل لابد أن تطرح في وجهه الدُّمى لتغويه . ارتفعت أضرحة الأسلاف في أكوام من حجارة سوداء محروقة بنيران القرابين . لم ترتفع، ولكنها تبعثرت هنا وهناك وتناثرت حجارتها بفعل الأمطار والزوابع وتتابع الزمن القديم . بين الحين والآخر كانت تتراءى أضرحة أحدث عهداً ، أضخم حجماً ، أنصع حجارة .

استمرار الإستواء في الامتداد استثار الوحشة ، ولكنه أيقظ إحساساً غامضاً بالسعادة : خلاء أبدي يتوالد في كل الجهات ، تعلوه سماء أبدية تحاكيه في الامتداد إلى كل الجهات ، وتمضي لتلتئم

الأفق المزموم الذي يحكم الطوق من كل الجهات ، ويستبدّ السكون بالوطن برهاناً آخر على المكيدة ، فأستشعر نفسي ضئيلاً كحبّة حصباء . ولكني لا أتوقّف . زحفتْ في الأفق ظلمة الغروب و لم أتوقّف . تخلّت المتاهة عن كبريائها فجأة وهوت الأرض في أودية هزيلة تتخلّلها أحراش العلّيق واليبيس .

من أحد هذه الأحراش قفز أرنب شقيّ ومرق بين رجلي في فراره نحو جهة الجنوب . ولكنه انحرف غرباً فجأة . ثم توقّف . انتصب على قائمتيه الخلفيتين والتفت برأسه إلى الوراء ليستطلع . راقبته زمناً ، ثم تابعتُ طريقي ، ولكني وجدت سبيل القوافل ينحرف نحو الجنوب أيضاً ويمضي حتى يجاور الموقع الذي انتصب فيه المخلوق الشقي . مشيت خطوات . جاورته . اقتربت منه ، ولكنه لم يتحرّك . كان بلونه الكئيب ينتصب كنصب حجري . يحدّق في عينيّ بفضول ، بل باستفزاز ، بل بتحدٍّ لم أعرف له سبباً .

تناولت من الأرض حجراً ورجمته . لم يتحرك . تقدمتُ نحوه خطوة فرأيتُ مقلتيه بوضوح برغم حلول الغيهب . كانتا عميقتين ، كبيرتين ، خفيّتين كعيني إنسان ، كعيني كاهن من كهنة الأغراب ، يرتجف فيهما ألق غريب ، كأنّ الشقيّ يريد أن يقول شيئاً . أغمضت عيني حتى لا أرى مقلتيه ، وتقدمتُ للإمساك به مغمض العينين ، ولكنه انسلّ . لم يفرّ كما فعل في المرّة الأولى ، ولكنه هرول ، بل هرجل بتثاقل لا يليق إلاّ بالجِمال المحمّلة بالأثقال . توقف بجوارعليقة

في منخفض بالجوار ، وبدأ يتشمّم الحصى ويمضغ كأنّه يقضم عشباً أو يجترّ لا أدري . تقدمتُ حتى وقفت فوقه فحدجني بمقلتين لم أرَ فيهما استفزازاً ولا فضولاً ولا تحدياً هذه المرّة، ولكني رأيت فيهما اللامبالاة . مضى يسعى تحت قدمي بلا اكتراث . انحنيتُ للإمساك به فأفلتَ بمهارة مرة أخرى وسعى في البرّ مسافة . لانت الأرض وأفضت الخلوة إلى وعثاء غنية باليبيس المخضوضر الأسافل . ويبدو أن سحابة عابرة مرّت من هنا فأحيت النباتات الميتة. مضى الشقي يتسكع بين النبوت ويحشو خطمه النهم في الأحراش . ولكنه كان يفلت كلّما اقتربت منه ويهرجل إلى الأمام أشباراً حتى حلّت الظلمات وصرتُ لا أتبيّنه إلاّ بعسر شديد . طاردته مسافة أخرى ثم استدركت . تذكرتُ أن عليّ أن أبلغ البئر قبل هجوم الليل لأنني لم أحمل معي ماءً ولا زاداً . عدتُ على عقبي . لم أعد على عقبي تماماً لأن العتمة حجبت الرؤيا ، ولكني سِرْتُ غرباً في ذات الاتجاه الذي سلكته الطريق ، وكان عليّ أن أقطع مسافة طويلة جدًّا حتى تبيّنت المسرب النحيل الذي حفرته جمال القوافل بأخفافها . تشبثتُ بالمسرب طوال الليل ولكني لم أدرك البئر أبداً . أصابني الإعياء ، وتيبّس حلقي لأني سفحتُ في الرحلة عرقاً غزيراً فأحسست بالعطش برغم غياب الشمس وهبوب نسمة ليلية رحيمة . تنحيتُ عن الطريق خطوة وتوسدتُ يدي ونمت كالقتيل . خيّل لي أنني سمعتُ هرجاً ، وأفزعني عواء الذئاب مراراً ، وتقدّم منّي سرب من الصبايا المتشحات

بالسواد تتقدّمهن سليلة جارتنا اللعوب وهي تتضاحك بإغراء كما عوّدتني أن تفعل كلّما التقينا بين المضارب أو في الخلاء . ولكن لا أعرف كيف تحوّلت الشقيّة وتلبّست جرم ذلك الأرنب اللعين لينتصب أمامي كالشبح بقامة ماردة دون أن يفقد ملامح التحدّي ، ثم مالبث أن تبدّل ليكتسب ملامح إنسان ، إنسان حقيقي ، بشع ، بعينين ناريتين ، وأسنان بطول أنصال السكاكين ففزعتُ لأجد نفسي أتحمم بشعاعات إله الشروق وجسدي يسفح آخر حبّات العرق . تلفتُّ حولي فرأيت العراء يستلقي في امتداد أكثر صرامة ، فلا يبدو في الأفق أي أثر لبئر أو حياة . تفقدتُ المكان فاكتشفت أن السبيل الذي سلكته طوال الليل لم يكن طريق القوافل، ولكنه درب من دروب قطعان الغزلان التي تهاجر عندما يسود الجدب في أرض فتبحث عن الكلأ في أرض أخرى . فهل استطاع الأرنب المشئوم أن يضلّلني باستدراجي إلى التيه مستعيناً بظلمة المساء؟

تذكرتُ حكايات الـ " **ما** " عن نحس ملّة الأرانب التي لم تكن في يوم من الأيام حيواناً ، ولكنها سعلاة تنكرت في جلد الأرنب في ذلك الزمان البعيد الذي حاول فيه القوم أن يلقوا بها في النار عقاباً لها على استدراجها لأبناء القبيلة وبيعهم إلى قبائل الجنّ مقابل كنوز التّبر التي تحتكرها هذه القبيلة الخفيّة . وتشاءمت أكثر عندما تذكرت أن هذه الجنيّة اللئيمة ذهبت بي إلى سبيل الغزلان عمداً ؛ لأن الغزلان ، كما حدثتني الأم ، هي ماشية أهل الخفاء التي يروق

للجنّ أن يتخذوا من أجرامها مطايا .

في امتداد الخلاء غرباً تراءت أشباح على طـول الأفـق ، تلـوّح بهـا سيول السـراب إلى أعلـى حينـاً ، تمزقهـا إربـاً حينـاً ثـــم تعــود فتلملمها. وسوس في صدري الأمل بأن تكـون الأشباح قافلة تتجـه شرقاً أو غرباً ، شمالاً أو جنوباً ، وعليّ أن أدركها قبل أن تبتعد .

ارتفـع " رغ " في سمـاء عاريـة ، فتمـادت في الصحـراء ألســنة السـراب ، فقـررتُ أن أسـرع قبـل أن يصرعـني الظمـأ . وبرغـــم أن الأشباح لم تختفِ ، إلاّ أن المسافة التي قطعتها في طلبها لم تقرّبني منهـا أيضـاً . انطلقـتُ مهـرولاً . هرولـتُ حتـى انتصـف النهـار وبــدأتْ الصحراء تحترق بنيران الظهيرة . ساعتها بدأت ستور السائل اللعـوب تنقشع لتكشف حقيقة الأشباح : في الأفـق تـراءت لي سلسـلة جبليـة تعترض استواء الصحراء غرباً وتستلقي لتضع حدّاً للامتداد الأبـدي . تبدلت الأرض وتخللتها الوديـان الـتي تنتشـر في قيعانهـا أشـجار الـرتم وبعض الأعشـاب البريـة الـتي تيبّسـت شـعافها العليـا ولكـن أسـافلها استماتت لتحتفظ بالاخضرار .

احترسـت مـن الاقـتراب مـن أعـراف الـرتم الـتي لم أنـسَ أنهـا تذهب بالعقل ، ولكني لم أستطع أن أمنع نفسي من مهاجمة العشب . جرّدتُ أعاليه من اليبيس والتقمتُ نصفه الأخضر ، وشرعـتُ أمضغ ، وأمضغ ، وأمضغ . امتصصتُ الرحيق ولم أعبأ بصنـوف المـرارة الـتي استطعمتها في كل عشبة . أكلـتُ طويـلاً . أكلـت لا لأشبع ولكـن

لأرتوي . ولكني في النهاية شعرت بالدوار فركعت أرضاً وبدأت أتقيأ . تقيّأتُ كل أجناس الأعشاب التي التهمتها ، ولكن المرارة سرت في بدني كلّه فبدأت أرتجّ وأرتجف . تذكرتُ ما يرويه القوم عن أعشاب الصحراء السامّة ، فأيقنتُ أن جنون الظمأ أكثر عماء من الجنون الذي يصيبنا إذا التقمنا أشجار الرتم .

ظننتُ أني تحررتُ من السموم ، ولكن الحمّى زعزعت بدني كلّه ، فبدأت أترنّح . هجعت في ظل رتمة وأنا أنتفض . غالبت الدوار ، وسفحت عرقاً أعقبه خواء وخور في قواي ، كأنّي لم أسفح عرقاً ولكني نزفت دماً . في غيبوبتي عاركت الأشباح ، وحاولت الإفلات من مطاردة ناب الأرنب القبيح الذي طاردني متخذاً جرم الصبية اللعوب تارة ، والحيّة تارة ، والسعلاة الكريهة تارة أخرى . لم أدرِ كم من الوقت استغرق الكابوس ، ولكني عندما أفقتُ وجدت أن الأصيل قد حلّ فخيّل لي أنه أصيل يوم آخر أو ثالث أو رابع ، لأن الظمأ قد اشتدّ برغم تراجع الحمّى . لم يكن ذلك ظمأ ، ولكنه لعنة أسوأ من الظمأ . حاولت أن أنتصب على قدمي ، ولكني لم أفلح، فزحفتُ . زحفت على قدمي ورجلي عبر لميس الوادي . اعترضتني النبوت فشعرت بالقشعريرة كلّما وقع بصري على نبتة خضراء .

واصلتُ الزحف . استعصت الأرض وتبدّت ألواح حجرية هنا وهناك . بجوار شجيرة رتم ، فوق صلد حجري ، عثرتُ على كوم

من بعر . كان بعراً طازجاً . كان طازجاً إلى حدّ أن البلل تفصّد منه عندما سحقته بين أصابعي . بجوار الكوم ، فوق الصلد ، تلامع السائل المدهش كأنه كنز من كنوز الأساطير . فوقه حام البخار، ففزعت أن يتحوّل كلّه إلى بخار . انكببتُ فوقه وبدأت أتجرّع . كان طعمه مرّاً ، ولكنّي تجرعته كلّه . أحسست به يسري في بدني فبدأت الغشاوة تنقشع من بصري . انقشعت الغشاوة فأبصرتُ الغزالة تنتصب بجوار شجرة الرتم وتحدّق نحوي بكبرياء. كلاّ ، كلاّ . الكبرياء كان في قامتها ، ولكن الغموض هو الذي رأيته في عينيها الكبيرتين ، الكحلاوين ، الذكيتين . فهل هما عينان حقّاً، أم أنّهما بئر خفيّ يتكلّم بتلك اللغة الموجعة ، اللغة الحقيقية ، اللغة المنسيّة ؟ أحسستُ أن الإلهام يسري في بدني كما سرى بول الغزال في بدني فوجدتُ في نفسي القدرة على الفهم .القدرة على فهم اللغة المنسيّة التي تجعل لساني ولسان الغزال لساناً واحداً ، وتجعل من مصيري ومصير الغزال مصيراً واحداً ، وروحي وروح الغزال روحاً واحدة . ساعتها فقط ومض القبس واكتمل الوحي في قلبي . تذكرت ملحمة الأجيال التي تروي كيف تحوّل " وانّس " مخلوقاً مُنْكراً برأس إنسان وجرم غول ، لأنه خالف وصيّة شقيقته " تانّس " فشرب من بول الغزال عندما نال منه العطش أثناء عودته إلى موقع المبيت الذي نسي فيه تمائمه . رأيتُ شبح الغزالة تتقدم نحوي برغم أنها لم تتخلَّ عن المضغ ، وربما لم تكن تمضغ ، ولكنها كانت تجترّ ما أكلته . مضت

تقترب بقامتها المكابرة وتقترب . تحدّق في المجهـول فـيزداد الإيمـاء في عينيها عمقاً ، وإغواءً ، وبهاءً . البهاء الذي لا نراه إلاّ في العيون الـتي احترفت التحديق في عين الأبدية حتّى صار لها الغيـاب طبيعـة ثانيـة . اتسـعت عيناهـا الكحـلاوان واستحالتا بحـيرة مـن الألــق والشـقاوة والغموض . نهلتُ منهما بنهم كما نهلتُ من البول منذ قليل فبـدأتُ أتحرّر . لم أتحرّر من الوجع ، أو من المرارة ، أو من الوهن فحســب ، ولكني تحرّرت من البدن أيضاً .

رميتُ بنفسـي في البحـيرة ، في اليـمّ المجبـول بـالألق والشـقاوة والغموض، وبدل أن أشعر بحلاوة الغمـر في ، وجـدت نفسـي ريشـة تتأرجح بين الأرض والسماء .

٤. الأصيـــل

صحوت من نومتي فأحسست بنفسي محطّماً كما يحدث لكـلّ من انتزع نفسه من أضغاث كابوس : بدني مغروس في الأرض كقدم الجبل ، وأطرافي ثقيلة كقطع الحجارة ، رأسي يتصدّع بألم لايطـاق ، وعضلة اللســان في فمـي أيضـاً أصابهـا الشـلل ، فاستطعت أن أفتـح عينيّ، ولكني أخفقت في زحزحة عضلة اللسان . فما معنى هذا ؟

في الداخل وجدت نفسي سنجيناً داخــل خبـاء يطوّقـه خبـاء ، وبرغم الحبس استطعت أن اتطلّع إلى الخارج ، عـبر المدخـل ، لأتبيّـن الزمـان . رأيـت نبـوءة " رغ " فيضـاً خجـولاً يســرح في الخـلاء ، فظننتُ الوقت صبحاً ، فهل هو ميلاد ؟ هل هــو ميـلادي الأوّل ، أم ميلادي الثاني ؟ إذا كان في الأمر ميلاد حقاً فيقينـاً أنـه ميـلاد ثـان ، لأن وسوسة خفيّة أنبأتني بما لا يدع مجالاً للشك بـأني كنـت شـاهداً على ميلاد آخر يوماً آخر لأن نبوءة الضياء التي اعــترضت بصـري في الخارج لن يكتب لها أن تكون أكذوبة ، لأن جذرها كان وحياً خفيّاً مغروساً بعيداً في قلبي لم يكن من حقّي أن أشكّك في أمره لأن وحيـاً آخر تنزّل في صدري ليقـول أنـي أستطيع أن أشـكّك في كـل أمـر ، ولكني لا يجب أن أشكّك في إلهامي إذا شئتُ ألاّ أخون نفسي .

ثم .. ثمّ ألقى الإلهام في قلبي كنزاً آخر فتذكرت أمراً جليلاً ، تذكرت أني كنت حرّاً ، فما الذي أوقعني في الأسر ؟ تذكرتُ أني تحررت من كل أعبائي وانطلقت . تذكرتُ أني سبحتُ في الفضاء ما شاء لي أن أسبح ، لأني استطعت أن أتخلّى عن صَدَفة القواقع التي كانت تحتضنني ، فأي حكمة أسقطتني في الفخّ مرة أخرى ؟ كيف تحقّق لي الخلاص ، وكيف انقلب الخلاص على رأسي وسرحت بلا جرم ولا لسان ، وكيف انقلب الخلاص بلاء يكتم أنفاسي بثقل كالجبل ؟ ساعتها سمعت الصوت يتكلّم بوضوح :

- هذا ثمن الخروج !

في البدء تهيّأ لي أن الصوت ينطلق من صدري ولا ينطق به لساني ، لأن يقيني بشلل عضلة اللسان لم يتزعزع أبداً . ولكن النبوءة تكرّرت بوضوح أشدّ فاستطعت ، بعد جهاد ، أن أتبيّن صاحب النبوءة القابع في ركن الخباء . كان شبحاً يستعير ملامحه من ملامح أهل الخفاء . يتقنّع بلثام أسود ، محصّن البدن بسلسلة من التعاويذ المدسوسة في قطع الجلد . رأسه متوّج بتميمة ، منكباه متوجان بتميمتين ، وصدره موسّم بقلادة مهيبة من هذه التمائم . ساعداه أيضاً معصومان باثنتين . ولولا هذا الحشد الرهيب من الأحجبة لما شككت في انتمائه إلى قبائل الجنّ التي تستوطن الصحراء الممتدة من " تينغرت " إلى " تينيري " لأن الاهتمام برموز الأقدمين المدسوسة في هذه القطع أمر يليق بالكهنة وحدهم .

ساعتها انطلق لساني بطلاقة فاجأتني ، وسمعت نفسي أتساءل:

- عن أي خروج يتحدث مولاي ؟

لم يفاجئه السؤال ، كما تهيأ لي ، كما لم يفاجئه تحرّر لساني. مضى يحفر بأصابعه على الأرض رموزاً قبل أن يجيب دون أن يشيّع نحوي بصره :

- الخروج في طلب الأب !

- ولكن .. من أنت ؟

رمقني لأوّل مرّة فرأيت في عينيه كلّ ما يجب أن يُرى في عين الكاهن الحقيقي : الغموض ، الحزن ، النبوءة ، والوجع الذي يُقال أنه قَدَر كل نبوءة . قال :

- يحسن بك أن تسأل نفسك : " من أنا " بدل أن تسألني : " من أنت " !

خيّل لي أن إيماء الوجع في عينيه اشتدّ فجأة حتى كاد يتحول شقاءً حقيقياً فتألمت لألمه الذي لا أدري له سبباً . ثم اكتشفت أنه على حقّ لأني لا أستطيع أن أجزم بشيء لا عن نفسي ولا عن الدنيا برغم إلهامي النفيس الذي أوحى لي بأني وُلدتُ يوماً ، وعرفت يوماً ، وتحرّرت يوماً .

قلتُ :

- صدق مولاي ، فمن أنا يا تُرى ؟

- كدت أفقد الدنيا كي أعيدك إلى الدنيا .

- لا أفهم .
- ألا تذكر شيئاً أبداً ؟
- أذكر أني كنت حراً !
في عينيه لمعت بسمة . التفت نحو المدخل ليسرح في الخلاء .
قال بغموض :
- لم تخطئ . كنت حرّاً حقّاً .. كنتَ حراً إلى حدّ أنّك كدتَ تفقد نفسك بهذه الحرية !
- وهل نفقد انفسنا بالحرية يا مولاي ؟
- الحرية ، يا بنيّ أن تحيا ، لا أن تموت .
- ولكنّي كنت سعيداً .
- سعادة الأحياء أم سعادة الموتى ؟
- في ذاكرتي كنز لحكيم قال أن في السعادة تستوي الحياة بالموت .
- احترس ! البطولة أن نحيا لا أن نموت !
- هل قلتَ أن البطولة أن نحيا لا أن نموت ؟
- بلى .
- يروق لي هذا ، ولكن هل نستطيع أن نجد للحريّة مكاناً بهذه البطولة ؟
- من أين لك بالقدرة على الحجّة ؟ لا يليق بإنسان أن يرجم الكاهن بسؤال ما لم يبلغ من العمر عتيّاً !

- ليس الولد صاحب السؤال يا مولاي ، ولكن صاحب السؤال هو الحرية التي تنام في صدر الولد .

- هذا داء ، هذه لعنة ، فاحترس !

- بلى ، يامولاي ، الحرية دائماً داء ، دائماً لعنة ، ولكنها كالنبوءة ، اللعنة التي نعبدها .

- إذا تكلّم الغلمان بالنبوءة فتلك علامة نحس حتى لو كانت نبوءتهم يقيناً !

- أأنا غلام ؟

- الحقّ أن لسانك جعلني أشكّ .

ساد صمت . في الخارج بهت لون الضياء ، فسألت :

- هل الوقت شروق أم غسق ؟

- بل أصيل !

- منذ قليل تهيّأ لي أني أحيا ميلاداً .

- بلى . أنت تحيا ميلاداً لا شكّ فيه .

- هل هو ميلادي الثاني ؟

- بلى . من حقّك ألاّ تشكّ في ذلك .

- هل الميلاد الثاني فردوس ؟

- لا نحيا مرّة إلاّ بأمل أن نولد مرّتين !

ردّدت وراءه :

- لا نحيا مرّة إلاّ بأمل أن نولد مرّتين .. ولكن مولاي تحدّث

عن الثمن الذي ندفعه مقابل الخروج وراء الآباء .

- ثمن طلب الآباء المسوخ !

- المسوخ ؟

- بلى . لقد عاركت أشرار الجنّ عراكاً مميتاً قبل أن أحرّرك من شرّ المسوخ !

- عن أيّ مسوخ يتحدّث مولاي ؟

- كان الرعاة يرعون قطعانهم في وادي الرتم بأمان عندما دهمهم الشبح المنكر الذي أفزع مواشيهم .

- الشبح المنكر ؟

- كان مخلوقاً قبيحاً ملفّقاً نصفه إنسان ونصفه حيوان .

- هل هو جان ؟

ولكنه مضى في روايته متجاهلاً سؤالي :

- يدبّ على أربع ، ويزاحم الأغنام على العشب ، في رقبته تتدلّى التمائم ، فهل شربت من بول الغزال يا شقي ؟

- هل قلتَ بول الغزال ؟ أظن أني رأيت عجباً في مقلة الغزال. شربت البول فرأيت العجب . ها أنا أتذكّر . اعترضني الأرنب الكريه فضلّلني عن السبيل . سرق العطش منّي العقل فشربتُ. أعترف أني شربت من بول الغزال . ولولا بول الغزال لما تحرّرت . لولا بول الغزال لما نجوت . لولا بول الغزال لما شهدت ميلادي الثاني .

- نلت ميلادك الثاني ، ولكنك بالخروج فقدت أمّك .

- ماذا ؟

- لن تراها بعد اليوم أبداً .

تذكرت مرّة أخرى . تذكرت أني انبثقت من بطن الـ "**ما**" يوماً . تذكرت أنها علّمتني الأسماء يوماً . تذكرت أنها نهتني عن طلب الآباء فقالت إن وطن الآباء السماء وليس الصحراء . تذكرت. تذكرت ..

- خرجتَ لتنال الأب فأضعتَ الأم والأب معاً .

- من الأم جئتُ ، بالأمّ عشتُ ، وإلى حضن الأم أعود .

فكيف أصدّق أني أستطيع أن أفقد الأمّ ؟

- لن تراها بعد اليوم أبداً .

- لن أصدَّق ذلك أبداً . ولكن .. ما الذي حدث ؟

- لم تنهك عن طلب الأب إلا لخوفها من الفراق . وعندما قيل لها أنك هربت طلباً للأب أدركت أنها فقدتك إلى الأبد ، فذهبت مع النسوة لاستجلاب الماء من البئر . هناك استغفلتهنّ ورمت نفسها إلى الهاوية .

- لا !

- أنت قتلتها .

- لا !

- أنت لست قاتلاً وحسب ، أنت قاتل أمّه !

ساعتها تحررت . تحررت ببدني هذه المـرّة . انزاحـت الأثقـال الجاثمة على صدري ، وهببتُ كمن يهب من كابوس .

أجل ، أجل . لابدّ أنه كابوس آخر . الكابوس مازال مستمرّاً، والكاهن الذي يقبع في مواجهتي ليس سوى شبح من أشـباح الجنّ ، فلأرجمه بحجر أو قطعـة حصبـاء . مـددت يـدي وملأتهـا بـالحصى . رميت الحفنة في وجه الشبح ، ولكنه لم يتوارَ و لم ينقشع كما تنقشـع الأشباح . تمتمتُ بتميمة قديمة مجهولة الكلمات ، ولكنه لم يتزحزح . زحفت نحوه حتّى كدت أقـرع رأسـي بعمامتـه المهيبـة . حدّقـتُ في عينيه طويلاً . قلتُ :

- ولكن لماذا لا تحدّثني كيف حرّرتني من المسوخ ؟

٥. الشفق

مع حلول الشفق سَعَتْ ورائي بين الأخبية ، وطاردتني في الخلوات المجاورة . تضع سبابتها في فمها كما اعتادت أن تفعل وهي بعد في المهد صبيّة ، ودبّت ورائي بلجاجة الذباب كما اعتادت أن تفعل وهي بعد في المهد صبية . قالت للمرّة العشرين :

- إذا ذهبتَ معي إلى وادي الرتم قلتُ لك سرّاً .

- تكذبين !

- لن تندم .

- أعرف هذه الحيلة .

- لن تندم .

تتكلم دون أن تكف عن امتصاص إصبعها . في عينيها يومض الإغواء ، في مشيها الإغواء ، في قوامها الإغواء . يا مولانا "رغ" ما أسرع ما تنضج صبايا الصحراء . إنهنّ كنبات الصحراء الذي يطلع لعاعه اليوم إذا ذاق طعم المطر بالأمس . في سليلة جارتنا نضج كل شيء ، واستدار كل شيء : الخدّان ، النهدان ، الردفان . وقد اعتادت الشقيّة أن تضع أصبع سبابتها في فمها ، عندما كنّا نلعب بين المضارب ، ثمّ تتسلّل بيدها الأخرى لتدسّها بين رجلي ،

وتظلّ تتسلّى بالعبث هناك وهي تتضاحك دون أن تتوقف عن امتصاص إصبعها . وفي مرّة أخرى سألتني عن سرّ الذيل بوضوح . قالت إن الولد لا يبحث عن الدمية لأنه يملك ذيلاً ، ولكن الصبية تتلهّف لنيل الدمية لأنها لا تملك ذيلاً . ثم وضعت يدها بين فخذيّ وطفقت تسحق ما بينهما وهي تتضاحك بلا حياء . وقد رافقتها إلى المرعى في أحد الأيام فحاولتْ أن تجردني من ثوبي فقاومتُ ولكنّها مزّقته ببرود إلى نصفين وجرجرتني إلى شجرة رتم كثيفة لتختلي بي هناك . في ذلك المساء رضختُ أيضاً فرافقتها إلى وادي الرتم المجاور .

بعد الخلوة سألتها عن السرّ فألقت بسبابتها في فمها ، ثم سحبتها لتقول :

- أردت أن أحدّثك عن سرّ الأمّ .

قلتُ ببراءة بلهاء :

- الكاهن قال إنّي قتلتها .

- لا تصدّق كاهناً أبداً .

- كيف لا نصدّق الكاهن إذ الكاهن هو صاحب النبوءة ؟

تسلّتْ بامتصاص الرحيق الخفي من إصبعها النحيل . حدّقت في عيني بعينيها الكحلاوين ، الكبيرتين ، الشبيهتين بعيني غزال . في المقلتين عمق ، في المقلتين مجهول ، في المقلتين كنز . أسبلت جفنيها فتستّر الكنز . سحبتْ إصبعها من فمها لتقول :

- الكاهن هو الذي قتل أمّك .

لم أصدّق . أحسست بوهن مفاجئ . خارت قواي . تمتمتُ :

- تكذبين !

ولكني رأيت في عينيها ما لم أودّ أن أراه . رأيت ما لا يستطيع أن ينقله اللسان . رأيت الحقيقة . قلتُ :

- ولكن لماذا يقتل الكاهن أمّي ؟

التقمتِ سبابتها وتلعثمت بالقول :

- أمّك هي التي شاءت !

- ماذا ؟

- لتدفع ثمن عودتك إلى الدنيا !

- ماذا تقولين ؟

- عندما خرجتَ في طلب الأب ، وخرج رجال القبيلة في طلبك ، نذرت للرّبة " **تانيت** " ناقة إذا أدركوك حيّاً . وعندما أضاعوك نذرت للرّبة قطيعها كلّه . وعندما دخلتَ المراعي بجسد غزال ورأس إنسان وانتشر الخبر في القبيلة سلّمت رقبتها للكاهن كي يعيدك إلى الدنيا . .

- لا أصدّق .

- نحرها كما تنحر الشاة على ضريح الأسلاف !

- اسكتي .

- يُقال أن الداهية هو الذي طلب حياتها ثمناً لخلاصك من سلطان المسوخ .

- لقد طلبتُ منه أن يروي لي سيرة الخلاص فقال أنه حرّرني بتمائم الأوّلين التي لا يعلمها إلاّ دهاة السحرة .

- يُقال أنها قالت عندما رقدت على المذبح " ليس المهم أن أموت أنا ، المهم أن يحيا هو ؛ لأني لم آتِ إلى الدنيا لأبقى ، ولكنّي أتيتُ إلى الدنيا ليبقى هو " .

ساد السكون . الشفق تحوّل غسقاً ، بل عتمة . ولكن عيني لم تخطئ الكنز في عينيها ، لم تخطئ المجهول الذي رأيته في عينيها كما رأيته في عيني الغزالة في ذلك اليوم . قالت :

- هذا ليس كل شيء .

أسبلت عينيها ، ولكن سبابتها ظلّت تجوس في فمها . وبرغم ذلك فإن الإصبع لم يمنع اللسان من القول :

- الأب !

سكتتْ فلم أحتمل . سألتُ :

- ماذا تريدين أن تقولي عن الأب ؟

أجابت ببرود :

- أعقبك إلى البيت بعد الخروج .

- كذب .

- أعرف أن أحداً لن يقول لك الحقّ . جدّتي تقول أن علينا أن نتعلّم أن نقرأ كل شيء في عيون الناس إذا شئنا أن نعلم .

- لماذا أخفى عني الكاهن حقيقة الأمر ؟

– لأن الكاهن ابن القبيلة ، والقبيلة لا تريدنا أن نذهب وراء الآباء لأن في ذلك مخالفة لوصايا الناموس القديم .

– الناموس المفقود ؟

– الناموس الذي يسمّيه الكُلّ مفقوداً ، ولكن حضوره معنا أقوى من حضور الأنفاس .

– من علّمك القول ؟

– لأنّي تعلّمت أن أسمع . تعلّم أن تسمع إذا شئت أن تعلم .

–أظن أنّي سمعت شيئاً أيضاً عن عداء الناموس للآباء ولكلّ من أراد أن ينتمي إلى سلالة الآباء .

– في عُرف الناموس لا وجود لأب .

– ولكن ما سرّ عداء الناموس لملّة الآباء ؟

– لكي نعلم حقيقة العداء علينا أن نحيا طويلاً ونسمع طويلاً .

كنت أرتجف . بدأ بدني يشتعل بالانفعال والحمّى والشقاء .

قلت :

– ولكن لماذا لم ينتظرني ؟

– لم يذهب إلاّ عندما يئس .

– ماذا قرأ أهل الناموس في حضوره ؟

– قرؤوا النحوس .

– النحوس ؟ !

– الحقّ أن نبوءتهم لم تتأخرّ ، لأن اللعنة حلّت على البيت ما

إن ذهب .

– أية لعنة ؟

– وهل هناك لعنة أشرّ من أن تنهار الركيزة ويتقوّض البيت ؟ هل هناك لعنة أشرّ من أن تخر ربّة البيت ؟ هل هناك لعنة أشرّ من أن ينقلب ابن البيت مخلوقاً يتنكّر في أجرام المسوخ ؟

انتصب السكون ، انتصبت العتمة أيضاً . احتجبتْ عنّي العينان البعيدتان فسرحتُ بعيداً . ولجت دهليز ميلادي الأوّل . فتّشتُ في دهاليز ميلادي الأوّل ، ولكني لم أفُزْ من الرحلة إلاّ بالرؤى. لم أفُزْ إلاّ بذلك الطيف الذي تراءى لي يوماً قابعاً بجوار الركيزة محاوراً الأم عن الأحجية ساعة تكلّمتُ بالنبوءة .

قلتُ دون أدري :

– لقد رأيته يوماً . رأيتُ الأب مرّة فكيف السبيل كي أراه ثانية ؟

سمعتُ صوتها في الظلمة ولكني لم أرَ عينيها . لم أرَ الحقيقة ، فتهيّأ لي أنّي أسمع صوت الكاهنة :

– لا نرى الآباء إلاّ مرّة . الأب لابد أن يُرينا وجهه مرّة لكي نفقده بعد ذلك إلى الأبد .

– رأيته طيفاً بجوار الركيزة كأنه رسول من الرّسل .

– كل الآباء رسل .

– ثم اختفى منذ ذلك اليوم .

– الآباء يختفون لأنهم رسل .

توسلّتُ كاهنة الظلمات دون أن أدري :

– أريد أن أراه . كيف السبيل لأن أراه ؟ ألا يستطيع الكاهن أن يستحضره لي ؟

في الظلمة جرت النبوءة على لسان الكاهنة :

– يستطيع الكاهن أن يستحضر لك ظل الأب ، ولكنه لن يستطيع أن يُحضر لك الأب .

زعزعني البلبال فارتججتُ وهويت على قفاي : في السماء رأيت النجوم .

٦. السُّدْفَة

الحيّات المسمّاة نساء لدغنني منذ البدء . لدغني علـى يـد امرأة الأغراب التي أقبلت على النجوع عابرة فـأطلقت عليهـا القبيلـة إسـم "تامنوكالت " (*) لسبب لا أدريه ، وعاملتها بمراسم الإكبار . كـانت مكابرة حقّاً ، ماردة القامة ، ثريـة البـدن ، بيضـاء البشـرة ، حسـناء الوجه ، في عينيها وصيّة غامضة لم يكن مقـدَّراً لي أن أفـك طلسـمها إلاّ بعد فوات الأوان لأنها لم تكن سـوى ذلـك النـاب الـذي يسـمّيه عقلاء القبيلة : " شهوة " والذي أصابتني به بسبب جهلي بهذا الإسم كما قدّرتُ فيما بعد . كانت تتنقّل بين الأخبية باستعلاء يليق بـامرأة في ثرائها وحسنها وغموضها ، فتجالس النساء اللائي لم يبخلن عليها لا بالذبائح ولا بحلقات الغناء الـذي يستمر في بعـض الأحيـان حتّـى مطلع الفجر . وقد رافقتُ الأم إلى هذه الحفلات مراراً لأتسـلّى باللّهو مع قريناتي اللائي يروق لهـنّ أن يختليـن بـي في زوايـا الأخبيـة ، فأتخفّى معهن هناك لأنام قبل ابتداء السمر لتفتّـش عـني الـ " **ما** " في كل مكان حتى إذا يئست عادت إلى البيت وحيدة فلا ألتحق بها إلاّ في الصباح .

(*) تامنوكالت : الأميرة .

في إحدى هذه الحفلات مدّت امرأة الأغراب يدها لتقرصني في عجيزتي خِفْيـة . لم أصـدّق في المـرّة الأولى ، ولكـن الفعلة تكـررت مراراً فتعجّبتُ ثم استنكرتُ فانحنتْ فوق رأسي حتـى انغمـر وجهـي بجدائل شـعرها وغـزتْ أنفـي برائحـة جسـدها حتـى أصـابني دوار . أغمضتُ عيني فوجدتها تضع في حِجْري حفنة من حبّات التمّر ، ثـم اقتربتْ بوجهها حتـى أحسسـتُ بأنفاسـها تلفـح رقبـتي ، وبشـفتيها تلامس لحمة أذني اليمنى لتوشوش بصوت كالفحيح : " إذا زرتني في بيتي أعطيتك المزيد . إذا زرتني ملأتُ حضنـك بـالرطب الـذي يقطـر عسلاً ! "

لم أجد في حِجْري ليلتها تمـراً ، ولكـني وجـدتُ رطبـاً حقـاً . وجدتُ أشهى رطوب الواحات التي ينزّ منها العسـل حقّـاً كـأن يـداً سخيّة انتزعتها من نخيل الواحات النائية للتوّ وفرّت بها إلى الصحـراء بسـرعة الجنّ . لم تكمـن لـذة الفاكهـة في امتلائهـا بالشّـهد ، أو في حجمها الرجراج ، أو في طراوتها ، ولكن في مذاقهـا الـذي لم يقـدّر أن أنساه أبـداً . مـذاق خـرافي زعزعـني واستفزّني وأيقـظ في نفسـي أحداثاً نسيتها ، وربما لم أعشها يوماً ، فأحسست بـأني لم أولـد يـوم ولدت ، بل وُلدتُ قبل أن أولد بألف عام ، بل بألف ألف عام ، لأن الذكرى التي نسيتها والـتي أيقظهـا ذلـك المـذاق الغـامض المبثوث في الثمرة العجيبة لا ترجع إلى عهود بعيدة وحسب ، ولكنهـا ترجـع إلى أزمان يستحيل أن تُقاس بالأعوام ، يستحيل أن تقاس بالزمان . لأنها

حتماً ليست إلاّ ذلك السرّ الذي يطلق عليه حكماء القبيلة اسم : "**الأبد**" . فهل هذا ما يسميه هؤلاء الحكماء خلوداً ؟ وهل المذاق الكامن في الثمرة ما هو إلاّ ذلك السحر الذي خلق ليداوي ذلك الداء الرهيب الذي أخفقت عقاقير أهل السحر في مداواته المسمّى في لسان القوم " **نسياناً** " ؟

ألا يعني هذا أني مخلوق بلا بداية ولا نهاية مثله في ذلك مثل هذه الصحراء ، وما موتي سوى غيبة تحتّمها الغفوة ، وما حياتي سوى الحضور الذي تحتّمه الصحوة ؟

همتُ على وجهي أياماً ، ولكني لم احتمل الانتظار طويلاً . صممتُ أن أقهر النسيان وأستعيد الحياة الضائعة ، الحياة الحقيقية ، بأيّ ثمن .

ذهبت إلى خبائها فوجدتها تركع في مواجهة " رغ " الضّحى، لتجدل شعرها السخيّ في ضفائر دقيقة . أومأت لي بعينها كي أقترب فزحفتُ نحوها أشباراً . غزا أنفي عطر جسدها فترنحت وأغمضت عيني لأغالب الدوار. ولكنها مدّت يدها واختطفتني . اختطفتني بكفّ مارد لتلقي بي في حضنها . كلاّ ، كلاّ . لم أجد نفسي في حضنها ، ولكني وجدتُ نفسي على صدرها الثريّ ، وراء ثوبها الفضفاض ، في فجّ بين نهدين هائلين متوّجين بحلمتين مزمومتين . جسدي يرتمي فوق رقعة عاجية متوتّرة ، يتيه فوق متاهة العاج لينزلق إلى أسفل فأتشبث بالنتوء الوحيد الذي أجده في متناول يدي ،

أتشبث بالنهدين . ولكنّهما يتفلّتان من يـدي لأن حجمهمـا أكـبرمن حجم كفّي فاستميت . أتشبّث بالحلمتين المزمومتين المرفوعتـين فـوق القمتين فأسمعها تقول بذات الصوت البحيح الذي يشبه الفحيح :

" النساء قلن أنـك تحـبّ أن تلهـو . النسـاء قلـن أنّـك علّمـت بناتهن صنوف اللّهو . أمّك أيضاً تريدك أن تلهو لأنها ترى أن الولـد الذي يفلح هو الولد الذي يلهو . الآن تستطيع أن تلهو ..هئ- هئ- هئ " . حشـرجتْ بضحكتهـا طويـلاً ، ثـم انقلبـت الحشـرجة أنينـاً عميقاً ، فتذكرتُ العهد . صحـتُ لأذكّرهـا بالوعـد وأنـا أكـافح كي لا أنزلق إلى أسفل : " التمر ! لقد وعدتيـني أن تهبيـني تمـراً ! ". حشرجتْ بصوت الفحيح : " وهل يوجد في الصحراء تمر أشهى مـن التمر الذي بين يديك يا شقي ؟ ! " .

أفلتت يدي الحلمة المزمومة بسبب بلل مجهول لا أدري عما إذا كان بسبب تعرّق اليد أم بسبب رطوبة نزّت مـن الحلمـة ، فـانزلقتُ عبر البدن العاجي اللميـس إلى أسـفل . وجـدتُ نفسـي في فـجّ آخـر يتوسطه دغل من أحراش كثيفة . تعلّقتُ بالأحراش فغزا أنفي شذى، وأحسستُ في لساني المذاق ، ذات المذاق الخفيّ الذي يبدد **النسـيان** وينير الطريق إلى **الخلود** .

بدأت أتردّد على خبائها كل يوم كي أتلذّذ بالمذاق إلى أن جاء يوم الفراق . اسـتيقظتُ يومـاً لأكتشـف أن الخبـاء قـد انقشـع وربّـة المذاق قد ارتحلت . لم أصدّق ، ربما لأنـي لم أتصـوّر أن أفقـد المـذاق

وأقع أسير النسيان مرّة أخرى .

أحسستُ **النسيان** جبلاً يجثم على صدري فقررتُ أن أتحـرّر . سـاءلتُ عـن سـبيلها وسـرتُ في أثرهـا . ركضـتُ خلفهـا كـالمجنون ولكني لم أنل من الأفق إلاّ السراب . أصابني الإعياء ونال مني الظمـأ، وحرقت الرمضاء قدمي الحـافيتين فسـقطتُ أرضـاً وشـرعتُ أزحـف على أربع . زحفتُ فسلخت الطريق ركبتيّ ويديّ وبدأت أنزف دماً . غلبني العجز أخيراً فاستشعرتُ المرارة بدل مـذاق الفاكهـة المفقـودة ، فلم أجد عزاءً إلاّ في البكاء . بكيتُ وبكيتُ حتى ساد الليل وصرعني النعاس .

٧. الزُّلفة

خرجتُ في طلب الكاهن ، ولكنه اختفى من النجع . سألتُ الأكابر فأجمعوا على جهلهم بأمره . سألتُ العجائز فقالت إحداهنّ إن الكهنة سلالة لا تختلف عن ذريّة الجنّ : تختفي عندما نبحث عنها، ولا تظهر إلاّ عندما لا نتوقّعها .

ذهبتُ إلى الضريح المهيب الذي قالت لي سليلة الجارة أن الكاهن روى حجارته بدماء الأمّ ، ولكنّي لم أجده هناك أيضاً . سافرتُ إلى المراعي وساءلتُ رعاة الإبل فقالوا لي أنه وسَمَ إبله بسيماء الرّبة " **تانيت**" ليحميها من اللصوص ، وتركها هميلاً في صحراء " تينغرت " منذ سنوات . يئستُ من أمره أخيراً فقررتُ أن أدفن همّي في النسيان فلم أجد معيناً أصلح من الدنيا : قررتُ أن أسافر إلى " تارجا " لأفتّش عن إبلي التي نلتها من الأم على سبيل الإهداء قبل يوم الفراق المشؤوم واسترعتها أحد أبناء القبيلة الذي قيل لي أنه يمتُّ لي بصلة قُرْبى . ذهبتُ إلى الخلاء المجاور لأرابط للقوافل المتجهة صوب الجنوب .

توسّدتُ معصمي وهجعتُ تحت شجرة طلحٍ لأقضي ليلتي الأولى . بدأتُ أنعس ، وحامت حولي الرؤى ، عندما وقف فوق

رأسي شبح الكاهن . في البداية خلته طرفاً انفصل عن طائفة الرؤى ، ولكنّي استطعتُ أن أتبيّنه على ضوء النجوم برغم تستّره بأثوابه ذات اللون الكئيب . ظلّ منتصباً فوق رأسي أمداً خلته دهراً قبل أن يتساءل ببرود :

– قيل لي أنّك بحثتَ عنّي !

لم أجبْ ، فأقعى على قدميه في مواجهتي . حدّقتُ في وجهه لأقرأ النبوءة في عينيه ، لأقرأ اليقين في عينيه ، ولكن ستور العتمة حجبت عني إيماء العينين فقلتُ :

– ظننتُ الكهّان خلقاً ككلّ الخلق لا أشباحاً !

أجابني بلا تردّد كأنّه كان ينتظر السؤال :

– من أين سيأتي الكهّان بالنبوءات إن لم ينقلبوا أشباحاً ؟

حدّقتُ فيه مرّة أخرى . خيّل لي أني اقتنصت وميضاً في عينيه ، وميضاً يفضح استخفافاً خفيّاً . استفزّني الإيماء ، ولكني ابتلعت الغضبة فأحسستُ بها في الحلق غصّة . قلت :

– من حقّ الكهّان أن ينقلبوا أشباحاً ، من حقّ الكهّان أن ينقلبوا جاناً ، ولكن ليس من حقّ الكهّان أن ينقلبوا قتلة !

– قتلة ؟ !

– أنت قتلتَ أمّي !

قلتها ببرود برغم أن جسدي كلّه كان يرّتج ويرتجف . مضى يحدّق صوبي ساكناً ، فتهيّأ لي أن إيماء الاستخفاف في مقلتيه اشتدّ .

قال بذات البرود المنكر :

- بلى ! الكهنة يقتلون أيضاً ، ولكنهم لا يقتلون إلاّ ليحيوا !

اشتدت الرجفة في بدني . بدأتْ تتحوّل حمّى حقيقية ، فتراءت لي الأمّ وهي تهدهدني . تراءت لي وهي تلقّنني الأسماء . تراءت لي وهي تلقّنني النبوءة . تراءت لي وهي تلقي بي في الهواء لأغتسل بنور " رغ " ، وتتلقفني لأولد في حضنها من جديد . بدأتُ أختنق . حاولت أن أتكلّم ، ولكن العضلة التي تتلوّى في فمي خذلتني، فتكلّم هو بدلاً منّي . تكلّم هو ليحقّق الغلبة . بلى . الغلبة دائماً في صفّ الطرف الذي يتكلّم . الغلبة دائماً من نصيب الفريق الذي أحسن استخدام العضلة . الحقيقة أيضاً معشوقة اللسان ، ومن أخفق في استخدام عضلة اللسان فنصيبه الباطل . فطوبى لمن أحسن استخدام اللسان ، وويل لمن أخفق في استخدام اللسان .

تكلّم الداهية بذات البرود لأنه أدرك أن بروده يستفزّني ، لأنه أدرك ، بحاسة النبوءة ، أنه بالبرود يستطيع أن يميتني :

- كيف لي أن أُحْييك إن لم أقتلها ؟

- هراء !

بذلت جهداً بطولياً كي أقذف بهذه الكلمة برغم يقيني بسخفها ، برغم يقيني بأن الـ " هراء " هو ما لفظته أنا وليس ما قاله هو . ويبدو أن الداهية استشعر عجزي فتباهى بعضلة اللسان :

- ألم تعلم أن في موتها هي حياتك أنت ؟ ألم تعلم أن ميلاد

الأبناء رهين بهلاك الآباء ؟

سمعتُ القول ولكني لم أفهم معنى القول . لم أفهم لأنّي استيقظتُ للتوّ كما استيقظتُ يوماً لأجد نفسي سجيناً في حضن الأم، أتلجلج بلساني لأني وجدت نفسي عاجزاً عن استخدام اللسان، فتروي الأم وتتكلّم نيابة عنّي كما يتكلّم الكاهن الآن نيابةً عنّي . انتهز الداهية الفرصة فاستأثر بالكلم كلّه . تكلّم ، وتكلّم ، وتكلّم . ولكنّي لم أفهم ، وربّما لم أفهم لأني لم أسمع . ولم أسمع لأني غالبتُ الحمّى لأنتزع المِدْية من كُمّ جلبابي . وتشاء الأقدار أن تستقرّ مديتي الرهيبة في نحره في تلك الساعة التي انتهى فيها إلى القول: " هذا هو ناموس القربان ! " فتحوّل إلى قربان ، لأن نصل السلاح غاص في النحر بعيداً ، ففزّ الدم الحرّ السخيّ ، اللّزج ، ليلوّث أصابعي ، ومعصمي ، وحتى وجهي ، ومضى يتدفّق ليروي أرض الصحراء الظمأى منذ ملايين السنين ؛ وكان عليّ أن أنتظر طويلاً جداً حتى أشهد سقوط ذلك المخلوق المكابر في حِجْري جسداً هزيلاً ، خاوياً ، خفيفاً مثل كوم من الريش .

٨. الفجـــر

التقينـا عنـد منعطـف الـوادي ، عندمـا خرجـتْ بأغنامهـا إلى المرتع، فندّت عنها شهقة فـزع لمـرأى ثوبـي الملوّث بـالدّم . ولكنهـا احتكمت إلى سبّابتها فالتقمتها لتواري الفزع . برطمتْ وهـي تلـوك الإصبع في فمها :

– ما هذا ؟ هل نحرتَ جدياً أم تيساً ؟

– بلى . نحرتُ التيس . البارحة نحرتُ تيساً أسود !

حدجتني بشكّ قبل أن تقول :

– هل هو قربان ؟!

– بلى . قربان !

ثـم حدّقـت في عينيهـا الكحلاويـن ، العميقتـين عمـق عيـني الغزالة، قبل أن أضيف :

– نحرتُ التيس قرباناً لروح الأمّ !

فاضت عيناها بذلك الألق الذي لا نراه إلاّ في عيون الغزلان .

الألق الذي لا يُفهم . ولا يكتشف ولا يُقاوم . أشحتُ بوجهي وسرحتُ ببصري في البريّة باحثاً عن وحْي أعبّر به عن السرّ :

– ألم تقولي أنه نحرها على الضريح كما تنحر الشاة ؟

توقّفتْ عن مضغ سبابتها . تمادى اللون الأكحل في مقلتيهـا . طغى السواد حتى ابتلـع العينـين فازدادتـا عمقـاً وحُسـناً وغموضـاً . استبدّت بي رجفة ، وأحسستُ بعودة الحمّى مرّة أخرى .

رأيته يقعى على رؤوس أصابعه في مواجهتي وينزف ، وينزف، وينزف . لم تندّ عنه آهة ألم ، ولا آهة وجع ، سـاعة تلقّـى المدية في نحره ، بل مضى ينتصب على قدميه حتى أيقنتُ أنه مارد مـن سـلالة الجان حقّاً . ولكنه سقط في حِجْري ساعة هممتُ بالفرار ، سقط في حجري ككوم من القشّ أو الريش . سقط في حِجْري كأنّه يريـد أن يحتمي بي . سقط في حِجْري لأن القتيل لا يملك إلاّ أن يحتمي بقاتله. سقط في حِجْري لأن شرع القتلى أن يحتموا بالقتلة .

حدّقتْ في عينيها . حدّقتُ حتى غبتُ في عمقهما . أخرجـتُ المدية من كُمّي . طعنـتُ بهـا الهـواء كـأني أحـارب عـدوّاً مجهـولاً . حشرجتُ بصوت ليس صوتي :

– طعنته هكذا ! طعنته في نحره ! هكذا ! هكذا ! ها – هـا – ها ..

ابتلعت ضحكتي . زفرتُ أنفاسي . زفرتُ كل أنفاسـي حتـى بدأتُ أختنق لأني لم أجد أنفاسي . تصببتُ عرقـاً ، وتهـتُ ببصـري حتى استقرّ على المدية الملوّثة بدم الضحيّـة . سـاعتها سمعـتُ صوتهـا فتعجبتُ . تعجّبتُ لأنـي نسـيتها . ظننـتُ نفسـي في الخـلاء وحيـداً فنسيتها . أمسكتْ بي من يدي وأجلسـتني إلى جوارهـا على الربـوة

التيّ تشرف على الوادي . قالت بوضوح :

- أنتِ لا تدري ماذا فعلت !

ثم كرّرت العبارة بذات اليقين :

- آه ، لو تدري ماذا فعلت !

ولكني قاطعتها بيقين أشدّ :

- فعلتُ ما يجب أن أفعل ! لم أندم على فعل اقترفته يوماً !

عضّتْ سبّابتها بأسنانها ، وترنّحتْ كأنها تنوي أن تنوح :

- ولكنه الفعل الذي لن تندم بعده على فعل إلى الأبد !

لم أفهم ، فسكتُّ . ساد الصمت زمناً . جاهدتُ لأستعيد أنفاسي الضائعة . ولكنّها لم ترحمني :

- لقد قتلتَ أباك ! أنت قتلتَ أباك !

ظننتها تحاكي لسان الأكابر عندما يستخدمون التورية . ظننتها تروي سيرة من سير الأجيال التيّ تنتهي بأمثولة أو وصيّة أو قولاً من ذلك النوع الذي يخفي إشارة . ولكنها التفتت إليّ وقالت بوضوح لا يحتمل الشكّ :

- ألا تدري أنك قتلتَ أباك أيّها الشقيّ ؟

تساءلتُ ببلاهة :

- لا أدري ماذا تعنين .

- الكاهن لم يكن لك إلاّ الأب !

ضحكتُ . ضحكت رغم ضيق الأنفاس . قلت بيقين :

- لو كان الكاهن لي أباً لما أضعتُ يوماً أباً !

- أنت لا تفهم ..

- ألم تخبريني يوماً بأن الأب أعقبني إلى البيت يوم خرجتُ إلى التيه في طلبه ؟

- لم أكذب !

- قلتِ أيضاً أنه أعقبني ليستعيدني ..

- لم أكذب !

- ولكنه استعاد أمّي بدل أن يستعيدني !

- لو لم يأخذ أمّك لما استعادك . لو لم يأخذ أمّك لما وجدتَ نفسك تدبّ في الصحراء على قدمين .

- ولكن كيف أبحث عن الأب في الدنيا وهو في متناول اليد ؟

- كل الأشياء التي نبحث عنها في البُعْد هي الأشياء التي في متناول اليد .

عادتْ تتحدثُ بلغة الأحاجي . عادت تتكلم بلسان الكاهنة ، بيقين الكاهنة ، هذه الداهية الصغيرة التي قالت لي يوماً أنها تعلّمت أن تقول لأنها تعلّمت أن تسمع . ولكني لم أسمع لأني لم أستطع أن أصبر على القول :

- ولكن بأيّ حق صار لي الكاهن أباً ؟

- لأن الكهنة خلقوا آباءً . ومَنْ نسميهم آباءً ليسوا في الحقيقة آباءً .

- من هم الكهنة ؟ من هم الآباء ؟

- الآباء ظلال ، والكهّان يقين !

- إذا كنتِ تريدين أن أفهم حقيقة الكهنة لا تحدّثيني بلغة الكهنة !

- الآباء دائماً أكذوبة !

- تكذبين !

- ولكن الكاهن صاحب نبوءة . ونحن أبناء النبوءة . كلّ أبناء القبيلة أبناء نبوءة . أبناء الصحراء كلّهم أبناء نبوءة !

- يجب أن أكون كاهناً كي أفهم أحجيتك عن النبوءة !

- لهذا السبب ورثنا عن القدماء الوصية التي يروّجها ناموسنا المفقود والتي لا تعترف بغير الأم والداً . نحن سلالة مفقودة مثلنا مثل ناموسنا المفقود ، لأننا ننتمي بالأبوّة إلى النبوءة ، وننتمي بالأمومة إلى الصحراء ..

- سمعت من أمّي قولاً كهذا ..

- لهذا السبب يراك الناموس قاتلاً لا لأبيك وحسب ، ولكن لربّك أيضاً .

- كذب !

- قاتل النبوءة قاتل الربّ !

- كذب !

- هذا ليس كل شيء ..

في عيني هذه المسكونة رأيتُ خطراً جديداً . في عيني الجنّية

رأيت نبوءة جديدة . كنتُ أرتجّ . كنتُ محموماً . كنت مبلبلاً . وبرغم البلبلة إلاّ أني لم أخطئ ما سمعتُ :

- أنت يجب أن تعلم أنّك لم تقتل أباك وحدك ، ولكنّك قتلت أبي أيضاً !

- ماذا تقولين ؟

سرحَتْ بعينيها بعيداً . نصبتْ سبّابتها في الفراغ كأنّها علامة لتميمة مجهولة . ألقتْ في أذني بالنبوءة الموجعة :

- أنا أختك !

لم أصدّق ، ولكني لم أستفهم . لم أستفهم لأن جرماً هوى في صدري . لم أعلم كم استغرق وجودي فوق الرابية . لا أدري أيضاً عمّا إذا كان الوقت مساءً أم نهاراً ، مغيباً أم فجراً . كنت أفكّر في حقيقتي كمخلوق مهجور ، في حقيقتي كمخلوق ضائع ، في حقيقتي كمخلوق قَدَره ألاّ يجد لنفسه وطناً ولا أباً ، في حقيقتي اكتشفتُ أنها حقيقة كل سليل صحراويّ لا يجد بُدّاً من الاعتراف بشقوته لأنه فقد السبيل إلى أبوّته ، ويسنّ عُرْف الانتماء إلى سلالة الأم لأنه ارتضى بمصيره كـ " **أنوبي** " (*) .

(*) أنوبي (أنوبيس) في لسان الطوارق الابن المجهول الأب ، وهو كذلك في المصرية القديمة أيضاً ، حيث تروي الأسطورة أن أنوبيس كان الابن غير الشرعي لأوزوريس، لأنه عاشر نفتيس ، قرينة شقيقه ست ، عن طريق الخطأ ، فأنجب منها أنوبيس الذي صار الإله الحارس على الموتى في العالم السفلي .

قررت أن أفرّ يومها من القبيلة ، ومن الصحــراء ، وحتــى مـن نفسي ، علّني أفلح في التحرّر من مصــيري ، فهُمــتُ في الخـلاء علّـني أجد ميلاداً جديداً في ربوع الوطن المسمّى " تارجا " .

لم أحسّ بأي مرارة بسبب فقداني الإحساس بالزمان ، كما لم أندم لأني أضعتُ لــون الأيـام ، ولكـني أذكـر أنــي هجعـتُ يومـاً في الخلوة الملفوفة بالظلمات فنمتُ كما لم أنم يوماً حتى أني لم أشــعر لا بالمساء، ولا بالصباح الذي كان لي يوماً ثانياً .

أَخْبارُ زَمانِ الوَجْد

" وقال لآدم : لأنّك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً " لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك . بالتّعب تأكل منها كل أيام حياتك ، وشوكاً وحسكاً تنبت لك ، وتأكل عشب الحقل ، بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أُخذت منها . لأنك ترابٌ ، وإلى ترابٍ تعود "

التكوين

(٣ : ١٧ ، ١٩)

١. البكــور

استيقظتُ مع الشـروق فوجـدتُ نفسـي وحيـداً ، مهجـوراً ، مستلقياً في خلوة قاسية تتخلّلها من جهة الشـرق والجنـوب السيوف الرملية المكابرة ، في حين تعترضها من جهة الغرب والشمال صحـراء تتخللها مرتفعـات جبليّـة صارمـة تلتـفّ حـول خاصرتهـا الرمـال في التواءات لجوجة ، تلثم شعافها حزم الضوء البِكْـر ، في حـين تتحمّـم ظهور السيوف الرملية بفيـض الصبـح فتلتمـع فيهـا الـذرّات بوميـض التبر .

استيقظتُ وظللتُ هاجعاً أمداً طويلاً . أنصتُ للسكون الـذي لا أعـرفُ لمـاذا تهيّـأ لي أنـه خـالد لأنّـه لم يسبقه شـيء ، ولم يختـلِ بالصحراء ، منذ أن وُجدت ، أي معشوق سواه .

تفقّدتُ المكان فلم أجد إلى جواري لا زاداً ولا ماءً . وهممتُ بأن أنهض فشعرتُ ببدني ثقيـلاً ثقل جسـد قطـع مسـافات خرافيـة مشياً على الأقدام . تحسستُ وجهي فوجدته ملفوفاً بقناع لميـس مـن الجلد كأنّه قطعة من الخزّ . لامستُ صدري بكفّـي فوجدتـه مكسـوّاً بالجلد الثريّ ، اللميس ، الموسوم برمـوز مجهولـة . قدمـــاي أيضـاً مدسوسان في نعلين فخمين من الجلد النفيس المحفّر بطلاسم التمـائم .

لم أستشعر جوعاً ، ولا ظمأ .

احتلتُ على الوهن في بدني حتى وقفتُ على قدمي ، سعيتُ في الأرض لأستطلع المكان . سِرْتُ شرقاً ، ولكن القرص الذهبي احتجب خلف سيف رملي عالٍ . السيوف الرملية تتلوّى بظهورها المكابرة هنا وهناك ، ولكن المسافات بين أجرامها كانت صارمة وقاسية ، برغم أني أبصرتُ علّيقاً أخضر يتشبّث بالتّربة المفروشة بالحصباء حيناً ، وبذرّات الرمال حيناً آخر .

اعترض سبيلي جبل رملي هائل فوجدتُ في حضيضه صفّاً من نباتات سخيّة ، متلاصقة ، مستديرة الشعاف ، متوّجة بزهيرات دقيقة ناصعة البياض ، تستجيب لنسيمات الصبح فتنوس برقص مستميت كأنها تريد أن تفلت من جذورها ، وتطلق أصوات أنين حزين آنسني في وحشة السكون الخالد . اختطفتُ من فروة إحداها قبضة فنزفتْ سائلاً ناصعاً . التقمتُ العشبة لأختبر مذاقها بلساني : كانت لزجة ، حادّة الطعم .

اعتليتُ في مسيري الجبل الرملي ، ولكني اكتشفتُ أن رماله من الجنس الرجراج الذي يتحوّل ويتدافع كالسيل ليجرف معه الأجرام إلى الأسفل . نازعته طويلاً . تشبَّثت بالرمال بيدي أيضاً ، ولكنه كان يدفعني إلى الحضيض في كل مرّة . قررتُ أن ألجأ إلى الدهاء وأحتال عليه . تخليتُ عن محاولاتي في الصعود العمودي ، واستبدلتها بالسير عرضاً متتبّعاً عروقه النافرة المطروحة في مفاصل

أفقيّة .

المفاصل قادتني إلى القمّة فرأيت ، في الأسفل ، سهولاً فسيحة تتخلّلها أحراش خضراء في مواقع أربعة ، في حين تحاصرها السيوف الرملية من الجهات الأربع أيضاً فتبدو معزولة عن جرم الصحراء التي تمتد وتتوالد حتى تغيب في الأفق المزعوم . في الحدّ الأقصى من جهة الجنوب الغربي ، في المكان الذي يجب أن يشهد لقاء الامتداد الجبلي الجنوبي بالامتداد الجبلي الغربي، تبدّى فجّ كمنفذ وحيد للحصن العظيم الذي أبدعه دهاء الصحراء .

نزلتُ السفح المهيب متدحرجاً . ألقيتُ بنفسي إلى الوعوثة الرجراجة فدحرجتني إلى الأسفل طويلاً . بلغتُ الحضيض فانطلقتُ صوب الأحراش هرولةً . ولكنّي لم أدركها سريعاً ، لأنها أبعد مسافة مما توهمتُ . في الطريق إلى هناك اعترضتني آثار مخلوقات حرثت الأرض حرثاً بسبب كثرتها ، ولكن عيني لم تقع على مخلوق . أدركتُ أوّل حرجة فإذا بها أشجار ذات سيقان ، وأخرى أقصر قامة، تلتفّ حول غمر سخيّ يتلامع تحت الضياء ، ثم يفيض من المستودع ليتدفّق في الخلاء عبر دروب هزيلة تنطلق غرباً وشرقاً حتى تبتلعها الروابي الرملية المجاورة .

من قمم الأشجار تدلّت عناقيد ثمارٍ سخيّة بهيجة للعين وشهيّة للنظر . مددتُ يدي وقطفتُ من العنقود السخيّ ثمرة . كانت بحجم الإصبع ، سمينة ، ينزّ منها سائل شفّاف وجدته لزجاً عندما لامسته .

ألقيتُ بها في فمي وشرعتُ أمضغ . ذابت تحت لساني وأحسستُ بسبب حلاوتها بوجع في أسناني . امتزجت باللعاب وبدأت تسري في بدني . تلذّذتُ بالمذاق الغامض وأنا ألوك في كسل . تباطأت في ابتلاع اللقمة لا بسبب عدم إحساسي بالجوع ، ولكن بسبب الإحساس المبهم الذي أيقظه المذاق في قلبي .

طفتُ الينابيع الثلاثة الباقية أيضاً . حولها التفّتْ أشجار النخيل في التئام حميم كما التفّتْ حول النبع الأول . من النخيل تدلّت العراجين المثقلة بعناقيد مختلف أنواع التمور . تحت جذوع النخل المكابر تبعثرت حبّات التمر أيضاً . بعضها تيبّس وبعضها مايزال طازجاً . فوق الأرض الندية ، عند ضفاف عيون الماء ، انطبعتْ آثار تلك الحيوانات التي وجدتُ آثارها عند المسارب الغنية بالحشائش ساعة نزلتُ السهل أول مرّة والتي أستطع أن أجزم الآن ، بعد أن استرجعتُ ذاكرتي أنّها لم تكن سوى آثار لحوافر الغزلان والودان والأرانب والضِّباب وشتى أجناس الطير. لم أتعرّف على هويّتها من آثارها فقط ، ولكن من حبّات البعر التي انتشرت في كل مكان . وكانت أسراب الطيور تصفّق بأجنحتها كلّما انتهكتُ لّمة الأحراش وتحلّق حول رأسي مرّة أو مرّتين قبل أن تفرّ لتحط على فروة العين التالية . الغزلان أيضاً اعترضتني في قطيع كبير في وادٍ محادٍ لآخر نبع من جهة الجنوب الشرقي حيث تنتشر أشجار الطلح . كانت تسرح بين الأشجار ، بعضها يلتقط نباتات الأرض ، وبعضها يتطاول في

شعاف الطلح لينتزع الورق الأخضر، ولكنها استنفرتْ والتأمت في قطيع واحد ما إن أبصرتني ، فذكّرتني بمسلك المعز عندما تشتمّ رائحة الذئب . راقبتني بفضول جماعي ولكنها لم تفزع و لم تفرّ فأيقنتُ أن عينها لم تقع على إنسان من قبل . وقفتُ أملأ بصري من جمال عيونها ولكن القطيع ما لبث أن فزّ وفرّ هارباً .

مشيتُ في عراء مفروش بحبيبات حصباء حمراء مستديرة دقيقة الحجم قبل أن أدرك حضيض الامتداد الجبلي ، فاكتشفتُ أن ما ظننته سفحاً رملياً لم يكن سوى جبل حقيقي تتسلّقه السيوف الرملية، فأيقنت أن جدران هذا الحصن الخرافي لم تكن في الأصل سدوداً رملية ، ولكنها جبال صخريّة استولت عليها الرمال في غزواتها الجنونية وغمرتها تماماً و لم يفلح في مقاومة الغزو إلاّ السدّ الجنوبي ، برغم أن الريح استطاعت أن تغمر حدّه الخلفي أيضاً ، كما اكتشفت فيما بعد .

على طول الامتداد الصخري للسفح تجاورت الغيران التي تبدو ، من الأسفل ، كأفواه خرافية . حول مداخل هذه المغاور تكاثرت حبيبات البعر ، و لم أعلم أن قطعان الودّان اتخذتها مأوى إلاّ عندما فزّ من إحداها تيس ضخم الحجم ، أشعث كثيف الشعر ، تسلّق الصخور العليا بقفزتين ، ووقف يتطلّع نحوي بفضول . تفقدتُ الكهف فوجدتُ جدرانه موسومة بهياكل سخيّة . مخلوقات غريبة التكوين ، حيوانات خرافية ، نساء بأجساد أسطورية أيضاً . رجال

يركضون خلف الودّان ، وآخرون مسلحون بالحراب يؤدّون رقصات جماعية ، ومخلوقات أخرى ملفّقة من أجساد الرجال ورؤوس الحيوانات المتوّجة بالقرون ، أو رؤوس الطيور . وقفتُ طويلاً أتفحّص هذه التراكيب المنكرة .

كانت الأوسمة تتوّج حيطان المغارة من أعلى السقف حتى أقدام الجدران ، وتمتد أفقياً على طول امتداد الصخور الملفوفة بالظلمات بسبب توغلّها في العمق .

تطاولتُ في السفوح حتى انتصف النهار وحلّ ميعاد الهاجرة فقررتُ أن أستريح . لجأت إلى أقرب غار ، ولكن في مدخله اعترضني شبح لم أتبيّنه بسبب شدّة الظلمة . ركنت إلى جدار الكهف لألتقط أنفاسي فرأيت في عتمات العمق عينين متقدتين تومضان تحت الشعاع المنبثق من فوهة الكهف . جاهدتُ كي أتبيّن الجرم ولكني لم أفلح بسبب كثافة العتمة . أغمضتُ عينيّ لأتسمّع ، ولكن السكون الأبدي ابتلع كل شيء فلم أسمع سوى أنفاسي .

سكنتُ زمناً، وعندما فتحتُ عيني وجدتُ أن اعتياد الظلمة بدّد العتمة ومكّنني من الرؤية : كان الشبح ينتصب في ركن الغار ساكناً كنصب من أنصاب الحجارة ، في عينيه المتقدتين وميض غامض غريب . قرناه ملتويان كقرون الودّان ، ولكن جرمه جِرم غزال حقيقي برغم ضخامته في الحجم ، يتطلّع نحوي بفضول شديد دون أن يتحرّك أو يستنفر أو يتنفّس كأنه جلد أجوف . تناولتُ

حصوة ورجمته بها ولكنه لم يستجب ، ولم يفزّ أو يفزع . زحفتُ نحوه على يدي وقدمي معاً . ضاقت بيننا المسافة فرأيتُ كيف تتسع حدقتاه وتكبر . في الحدقتين اشتدّ الوميض الخفيّ . أطلتُ التحديق فاستيقظ في قلبي سرّ . غزت أنفي رائحة حادّة ولكن بصري لم يتنحَّ . انتابتني قشعريرة مجهولة ، وتمادت في قلبي الوسوسة الخفية فقرأتُ في العينين الرسالة . قرأتُ الرسالة بوضوح ، ولكن النبوءة لم تستقم لأنها لم تجرِ لي على طرف اللسان . غمغمتُ ببرطمة غامضة دون أن أدري ، وخرجتُ من الغار زحفاً على يدين وركبتين . حاولتُ أن أنتصب واقفاً على قدمي ، ولكني أخفقتُ ، فلم أجد بُدّاً من الاستمرار في الزحف . نزلت السفح زحفاً . وعندما بلغتُ الحضيض هجعتُ على ظهري وشرعتُ أرتعد . كانت النبوءة تقرع رأسي ، ولكن استحالتها أصابتني بالدوار ثم الغثيان . فاض قلبي بالوسوسة فبدأتُ أتقيّأ . تقيّأتُ طويلاً ، ولكن بدني مضى يتزلزل ويرتجّ . تحسست صدري فوجدته لميساً ولكن سمكه أثار شكوكي . تفقدّتُ لباس الجلد فوجدته يلتحم بجسمي التحام الجلد بالجلد . حاولت أن أتنصّل ، ولكن هيهات أن يتنصّل الجلد من الجلد . أطلقتُ استغاثة ، ولكني سمعتُ حشرجة مخنوقة .

الشبح الملفّق من رأس الودان وبدن الغزال لم يرحمني . أدركني . وجدته يقف فوق رأسي بعينيه المتوهجتين المريبتين . عاندتُ ياسي وحدّقت في العينين . حدّق المخلوق المركّب في عينيّ أيضاً . أطلتُ

التحديق . ازداد لون الغسق شدّة في المقلتين . ازداد الغموض . ولكني لم أتزحزح فتحوّل الغموض . انقشع الغموض . اتضحت معالم النبوءة . في الطلسم العميق ، المجهول ، رأيتُ نفسي . انقلبت المقلة الحجرية صفحة من غمر السلسبيل فرأيتُ نفسي بوضوح . رأيت نفسي مسخاً . رأيت نفسي كائناً منكراً . رأيت نفسي مخلوقاً ملفّقاً من مخلوقين فأنكرتُ نفسي برغم أنّ يقيني بحقيقتي لم يتضعضع . ساعتها فقط تحررتُ . أحسستُ ببدني يتحرّر حتى أني لم أستعد القدرة على الوقوف وحسب ، ولكنّي اكتسبت قوّة تعينني على اختراق الأجواء .

٢. الهاجرة

القوّة التي أعانتني على اختراق الأجواء هي التي ساعدتني على دخول القطعان لأصبح جزءاً من القطعان منذ ذلك اليوم . تقافزت مع جداء الغزلان في الأسافل ، وتطاولت في الصخور الجبلية مع بُهم الودّان ، وشاركتهم الغداء برضع الحليب من أضرع أمهاتهم ، وتنازعنا نباتات السهول وجذور النبوت في الشعاب ، وتقاسمنا حبّات التمر المطروحة تحت أشجار النخيل . صارت الغزالة المهيبة التي ترفع فوق رأسها قرون الودان أمّاً وأباً منذ أن بثّت في قلبي القوّة يوم لقاء الغار . كانت مخلوقاً لم يُؤت قدرة الغزلان على عبور وعوثة السهول الرملية وحسب ، ولكنه نال قدرة الودّان على التطاول في أعلى القمم الجبلية الصخرية ؛ فكنتُ أتعلّق بذنبها الهزيل كي أبلغ شعاف الجبل الجنوبي ، وأعتلي ظهرها لأبلغ مراعي السهول الرملية الشمالية والشرقية والغربية ، واحتضن رقبتها لأتدلّى وأتجرجر وألهو . كنتُ قد نسيت . نسيت رسالتي ، ولم أتساءل عن حقيقتي ، بل نسيتُ حتى نسياني .

لا أدري كم استغرق اغترابي ، ولكن الوسوسة الخفيّة استيقظتْ في يوم شتوي تحجّبت فيه السماء بظلمات غيوم كثيفة ،

وتزلزلت رؤوس الجبال بقصف شديدٍ لم أسمع له في الصحراء مثيلاً ، ففرّت القطعان وتفرّقت : اعتصمتْ قطعان الودان بجبالها ، وتخفّتْ قطعان الغزلان في أحراش النخيل . ولكن القصف لم يتوقف ، بل تمادى . بدأت الغيوم تقدح شرراً مخيفاً ، وتحرق الأهوية بنيران ساطعة ، فازدادت القطعان فزعاً وانكماشاً حول نفسها . اختبأتُ أيضاً . فقدتُ السبيل إلى ذيل أمّي المركّبة من جسم الغزال ورأس الودّان فلجأت إلى الأحراش مع قطيع الغزلان . اندسستُ بين الأجرام تحت شجرة نخل واطئة كثيفة الأوراق عندما تزعزت السماء بالقصف الرهيب كأنها انتوت أن تنهّد أو تنهار على رأس الأرض ، فرأيتُ الفراغ الكئيب يتكشّف عن اللّهب . احترق الفراغ بالنار ، ومدّ لسانه ليضرب شعاف النخل أيضاً فبدأت الحرجة تحترق . تصاعد الدخان ، ولكن قبيلتي التي زعزعها الفزع التأمتْ حول نفسها و لم تتزحزح أو تفرّ . سمعتُ كيف يتوجّع جريد النخل في ألسنة النار ، ولكني لم أشتمّ النكهة الشهيّة إلاّ بعد أن هَوَت أعراف النخل العليا إلى الأسفل لتسقط فوق شجرتنا البائسة فبدأتْ تحترق أيضاً .

الرائحة الفذّة أشعلت في قلبي نبوءة مبهمة بلبلتني حقّاً ، ولكن فكّ الطلسم استعسر واستحال فتململتُ وفتّشتُ وتزعزعت . ويبدو أن الوسواس هو الذي أوجعني فأخرجني من الحرجة إلى الحريق . اشتدّت في السماء رائحة الشياط فاشتدّ إحساسي بالوحي ، ولكن

النبوءة لم تنبثق . انطلقتُ أجـري في السـهول المغمـورة بمياه السـماء دون أن أدري عما إذا كنت أركض فراراً من النار أم بحثاً عـن حيلـة تضيء في جوفي إيماء النبوءة . ولكـني لم أشـكّ أبـداً أن الفاكهـة هـي التي استثارتني . نكهة النار . نكهة الجرم الذي تلتهمـه النـار . نكهـة الغموض . نكهة الوصيّـة . نكهـة الشـهوة . في بدنـي تسـلل نهـم لم أجد له سبباً . ولكنه تمكّن كأنه السّم الزعاف فتدافعتُ في الصحــراء تدافـع الكـائن الممسـوس .قطعـتُ في فـراري مسـافة طويلـة . بلغـتُ الأودية المعشوشبة المطروحة شمـالاً فوجدتها تفيض بالمياه السماوية . تجرّعتُ من غمرها لأطفئ الجمرة التي تشتعل في جوفي ، ولكـن المـاء الذي وُلد ليحيي لا ليميـت لم يطفـئ اللّهـب . عـدتُ علـى عقـبي . عدتُ دون أن أدري فوجدتُ القطيع قد تخلّى عـن المخبأ وتفـرّق في البرّ المجاور . توقّف القصـف وكـفّ الغيـث . انقلـب قطـرات هزيلـة وبدأ الغيم يتبـدّد ، ولكـن النـار لم تنطفـئ في الحرجـة . اقـتربتُ مـن الأحراش فاشتدّت الرائحـة الخفيـة . غـالبتُ الـدوار . كنـت أغـالب الدوار عندما أبصرتُ تحت جذع النخلة المحترق جِـرم البهمـة الشـقيّة التي التهمتها النار فمضى الدخان يتصاعد من بقايا جسمها . اقـتربتُ خطوة أخرى لأزيح الركام ففزّ من البدن سائل كئيـب كـنزيف مـن دم أو قيح أو صديد . تناولت عوداً وأزحتُ أكوام الفحم عـن الجـزء الخلفي من الجرم فرأيت كيف اسودّ بعد أن مزّقته ألسنة اللهب أطرافاً وأشلاء مازال الدخان يتصـاعد مـن بعـض أجزائهـا . طعنـتُ بـالعود

الفخذة فتداعتْ وقلّتْ وهبّت منها نفحة بخار . في البخار شممتُ رائحة النكهة الشهيّة التي أصابتني بالمسّ . بدأتُ أرتجف مرّة أخرى ، فمددتُ يدي . استقطعتُ من الفخذة شريحة بوحي الحمّى لا بوحيي. نهشت بأسناني الشلو المغمور بالدّم والفحم والطين الذي يتصاعد منه البخار الشهي فاستطعمته جداً . التقمتُ الشريحة وبدأتُ أمضغ بنهم المحموم . لانت اللقمة بين أسناني وامتزج لعابي بالدّم والفحم والطين ، فاسترختْ أطرافي . كفّت الرجفة ، وتراجعت الحمّى ، وسَرَتْ السكينة في جسدي . انطفأت الحمّى نهائياً ، فاستيقظت الوسوسة بعد استشراء الترياق . وسوسة المجهول أحيَت إحساساً غامضاً ، خفيّاً ، نبوءة منسيّة .

انقشعت الغشاوة أخيراً واتضحت الرؤيا : رأيتُ صبياً يتدحرج بين الثديين الثريين قبل أن يسقط في الهاوية الظلماء . وكان عليّ أن أعاند زمناً آخر كي أكتشف هويّة الهاوية التي لم تكن في حقيقتها سوى ذلك الشبح المبهم الذي أسمّيه اليوم **نسياناً** لأدرك أن العافية هي الذاكرة التي استعدتُ بعونها **اسمي** .

بعد استعادة الاسم انقشعت الظلّمة وتتابعت الرؤى ، بداية بمراسم الميلاد ، ونهاية بالمدية التي استخدمتها للإطاحة بسلطان الأب.

استبدّ بي إحساس جديد ، عميق ، زعزعني لأني لم أدرك إلاّ بعد زمن طويل أنه لم يكن سوى تلك الأحجية الغامضة المسماة في

ألسنة القبائل **سعادة** . ولكني لم أعلم أن الخفاء الـذي يهـب السـعادة يأبى أن يهبها كاملة عادة ، لأني عندمـا فتّشـتُ بـالعود جـرم الشـاة الذي شَوَتْه النار اكتشفتُ ، في الجزء المغمور تحت الركـام ، القرنـين المعقوفين المحمولين على رأس المخلـوق المـزدوج المركّـب مـن الـودان والغزال ، فعرفتُ أنّي سمّمـتُ بدنـي **بالشـرّ** لأنـي التقمـت لحـم الأم المجبول بلحم الأب .

٣. العصر

انقشع الغيم وتبدذت ملامح السماء ، ولكن الأرض لم تتحـرّر من البلل بسـبب سـخاء الميـاه . خضـتُ في أوحـال الوديـان لألتحـق بالقطعان . أدركتُ جلياً في السهول الشمالية ، ولكن القطيـع جفـل واستنفر كما يفعل عندما يشتم رائحة الذئاب . اقتربتُ خطوات ففزّ وتأهب ودكّ الأرض بالحوافر . وعندما تقدّمتُ انطلق في فرار جماعي كأنـه يهـرب مـن ذئـب حقيقـي . هرولـتُ أيضـاً . لاحقتـه دون أن أدري، ولكن القطيع ابتعد وغاب وراء الهضاب المؤديـة إلى السـيوف الشرقية . هرولتُ خلفه طويـلاً . هرولـتُ لأن فـرار القطيـع الحميـم أحيـا في قلبي الإحسـاس القبيـح بالانسـلاخ فخنقتـني مـرارة جبّـتْ سـعادتي باسـتعادة الذاكـرة في الحـال . وجـدتُ نفسـي معـزولاً ، مهجوراً ، منبوذاً ، كما وجدتُ نفسي يوم فررتُ من نجوع القبيلة ، فتساءلتُ عن سرّ انكار الغزلان لي فلم أجد غير الشـره سـبباً . فهـل اللقمة الشهيّة فتنة قصاصها العزلة ؟ هل قدِّر لي أن أغترب من جديـد بسبب هذه الزلّة المشؤومة ؟ هـل آمنتـني قبـائل الغـزلان لأن النسـيان أعادني إلى قماط المسوخ وحولّني غزالاً أو وداناً دون أن أدري حتـى إذا التهمتُ اللّقمـة وتحـرّرت ، باسـتعادة الذاكـرة ، تبـدّت للقطعـان

عورتي ، ففرّتْ من وجهي إنكاراً لحقيقتي ؟ أيعقل أن ينقطع العهد وأُحرم من الغفران لأني أكلتُ لحم ذوي القُربى لا بدافع الجوع ولكن بسبب مسّ عرفتُ فيما بعد أن اسمه الشهوة ؟ . ولكني لم أعترف بهزيمتي .

اجتزتُ الروابي الشمالية لألتفّ على القطيع من جهة السيوف الرملية ، ولكن الأوحال عرقلتْ مسيري . فلم أبلغ الأودية السفلية إلاّ مع حلول العصر. تعرّت السماء من الغيوم ، وتسكعتْ في الفضاء بقايا سحب جوفاء . في الوديان استمرّت أبخرة الرطوبة تتصاعد إلى أعلى لتحمل إلى أنفي وصيّة الأرض . أشرفتُ على هوّة فأبصرتُ القطيع يرتع في قاعها . سقطتُ على ركبتي وراقبتها من عل :

كانت تسرح بأمان . تلتقم الأعشاب الهزيلة المستجيرة بالترباء التي سحقتها شدّة القيظ وحوّلتها في أسافلها إلى يبيس شبيه بهشيم القشّ . تنحني لتخطف الحشائش وتشيّع رأسها في استنفار مَنْ يتوقّع الخطر . تتلفّت يمنةً ويسرة وتحرّك أذنابها باطراد علامة أخرى على اقتراب الخطر .

بعض البُهم تقافزت هنا وهناك ، وبعضها الآخر انشغل باستدرار الحليب من أضرع الأمهات . الذكور المتوّجة بالقرون طافت بالأطراف في كبرياء ، ولم تتنازل لتقضم العشب ، بل وقفتْ على القطيع حرساً إمعاناً في الإحتراز . تأملّتُ تيساً مكابراً متوج الرأس بقرنين ، يحدّق نحو رابيتي طوال الوقت كأنه اكتشفني ، فرأيتُ

في عينيه النبوءة برغم الاستكبار . رأيتُ النبوءة في قامته ، قوامه ، وتكوينه ، ولونه ، واستقامته ، ونبله ، وعينيه المحدقتين في فراغ الأبدية ، تحدّقان في الخفاء الذي لا أستطيع أن أراه . فهل هذا هو الجمال ؟ هل هذا هو الجمال الذي أنكرني وبخل عليّ بالغفران ؟ فكيف أحيا بدون جمال ؟ كيف السبيل لاسترداد الجمال ؟

زحفتُ عبر سطح الرابية ، نزلتُ السفح زحفاً . اقتربتُ من أوّل شاة . حدّقتُ في عينيها فبادلتني التحديق . توقفتْ عن المضغ وطعنت الأرض بحافرها . توددتُ إليها بعينيّ . توسلتُ إليها بعينيّ . قلتُ لها إنّي لستُ سوى المخلوق نفسه الذي داعبها بالأمس وشاركها اليوم المخبأ ، ولكنها أنكرتني . رفست التراب بحافرها الأمامي ، وفزّتْ وفزّ القطيع كلّه . انطلق في الهواء كالسهام حتى غاب عن بصري ، فأيقنتُ أن صلتي بالقطيع قد انقطعتْ ، واعترفتُ لنفسي بأني لم أفقد الجمال وحسب ، ولكني انقلبتُ عدوّاً للجمال إلى الأبد .

لم أستسلم ..

تركتُ الغزلان وقررتُ أن أجرّب حظّي مع سلالة الودّان هذه المرّة . عبرتُ القاع ركضاً . عبرتُ الوديان ، وخضتُ أوحال السهول كمن يطارده مارد من أهل الخفاء . سقطتُ مرّات كثيرة ، وغاصت أقدامي في الطين حتى الركبتين ، ولا أعرف كيف بلغتُ العراء الحجري المؤدي إلى السفح الجبلي الجنوبي المتلحّف بالأردية

الرملية الملتوية كأجرام الثعابين . ويبدو أن عراكي مع الأوحال قد بدّلني مسخاً أقبح من كل المسوخ لأن مرآي أجفل قطعان الودّان في الحضيض فتسلّقتْ الجبل في ركض جماعي . ولكني تسلّقتُ السفح خلفها كالممسوس ، ولم أهدأ إلاّ بعد أن أدركتُ أنثى نتوج عرقل حركتها المخلوق الذي تحمله في بطنها . داستْ ، في عدوها إلى أعلى، حجارة هشة نخرتها الأزمان فزلّت بحافريها الخلفيتين حتى لامستْ السطح ببطنها وبدأت تنزلق إلى الأسفل . استعانت بحافريها الأماميين ، ولكنها أخفقت ، فاستعانت برأسها . غرستْ خطمها بين شقوق الألواح البائدة ، ولكنها تداعت فاستمرّت تنساب إلى الأسفل في انحدار وئيد ومحزن . أدركتُها . أو بالأحق أدركتني . لأن انحدارها هو الذي أوقعها بين يدي لا كفاحي في ملاحقتها . تشبّثتُ بحافرها الخلفي وشهقتُ لألتقط أنفاسي . ولكنها رفست بالحافر رفساً مستميتاً لتتحرّر ، فاستبسلتُ وتشبّثتُ بالحافر بكلتا يدي . هدأتْ عجزاً لا اطمئناناً ، والتفتتْ برأسها نحوي فرأيتُ في مقلتيها ، إلى جانب الغبار والمخاط وحبيبات الرمل ، رعباً واستنكاراً وشقاءً .

أوجعني الشقاء في مقلتيها الدامعتين حتى أن دمعاً فزّ من عيني أيضاً . مَسَّدْتُ على بدنها فوجدته يرتجف بشدّة . بحثُ عن سبيل أعيد به الثقة بيننا فوشوشتُ : " آوا نَكْ . تَتَوَدي ؟ "(*) .

(*) هذا أنا . هل نسيتيني ؟ (لسان الطوارق)

ولكنها أجابتني برفسة قاسية أصابت وجنتي اليمنى ، ثم بدأت تجاهد لتفلت . أفلتتْ فعلاً ، وصعدتْ إلى أعلى ببطولة . ولكن الألواح الهشّة تخلّت عنها مرّة أخرى فانزلقتْ إلى أسفل لتجد نفسها في قبضتي من جديد . ساعتها أطلقتْ خواراً عميقاً يائساً قبل أن تلتفت إليّ لأقرأ في عينيها توسّلاً إلى جانب العجز . استلقتْ على جنبها الأيمن ورَنَتْ إليّ بيأس . مررتُ بيدي على رقبتها لأعيد لها الطمأنينة ، ولكني لحظتُ أن الشقوة تمادت في مقلتيها ، وأدركتُ أنها لم تستسلم لملامساتي إلاّ عجزاً لا أُنساً ، فتساءلتُ عن السرّ الذي فرّق بيني وبين مخلوقات أليفة كانت لي بالأمس أهلاً وسلالة وقبيلة ، ولكني لم أجد للغز تفسيراً غير شريحة اللحم ، فهل انقلبتُ في عينيها وحشاً في ساعة ؟ هل كنتُ مسخاً أيضاً وتنكّرتُ لأصلي ، بالتهام اللّقمة ، لأصير مخلوقاً آخر استحقّ النكران ؟

تخلّت الألواح عن بدنينا فتدحرجنا إلى أسفل . وجدتُ نفسي أحتضن جرمها بكلتا يدي أثناء الرحلة إلى أسفل . أحتضنتُ رقبتها وضممتها إلى رقبتي . أحسستُ ببلل مخاطها على وجهي ، وبأنفاسها في أذني ، وبدقّات قلبها في قلبي ، ونبض الجنين في بطنها في نبضي . التأمنا في الرحلة فأحسستُ بها جزءاً منّي ، وأحسستُ نفسي جزءاً منها . استعدتُ عافيتي ، استعدتُ سكينتي لأني استعدتُ انتمائي .

سلخت الحجارة بدني بوحشية ، ونزف مني الدّم ، ولكني لم أستشعر الوجع إلاّ بعد انتهاء الرحلة بزمن . لم تدم الرحلة طويلاً

يقيناً ، ولكنها كانت كافية كي توقظ في نفسي ذلك الإحساس الغامض الذي عرفتُ فيما بعد أن الكهنة يسمّونه **سعادة** . ولكن كان عليّ أن أفقد السعادة أيضاً لأني علمتُ فيما بعد أيضاً أن هذا الطائر لايمكثُ بين أيدينا طويلاً . اعترضتنا صخرة فتوقّفنا . توقّفنا فتوقّف التئامنا وحدث الانفصام الموجع . انفصل الجسد عن الجسد واستعاد المنفي سلطانه على الدنيا . ركلتني في صدري بحافريها الأماميين فتخلّتْ عن الرقبة قبضتي غصباً عنّي . انتفضتْ واستطاعتْ أن تقف في مواجهتي على أرجلها الأربع . زفرتْ فنفثتْ من منخريها غباراً مخلوطاً بذرّات المخاط الذي تناثر على وجهي . حدّقتْ في وجهي . حدّقتْ في عيني ، في مقلتيّ ، في ماوراء مقلتيّ ، فرأتْ ، على ما يبدو ، في مقلتيّ كل شيء . تراجعتْ إلى الوراء ببطء يبيّتُ فزعاً وحرصاً واستنكاراً . زحفتُ نحوها دون أن أدري . زحفتُ لأستعيدها . زحفتُ نحوها لأسترجع الالتئام وأحقق التماهي . مددتُ يدي ، كلتا يديّ ، كأني أستجدي ، ولكنها مضت تتقهقر بحرص غريب دون أن تتوقف عن التحديق في عيني بذلك الإيماء المخيف .

انقدتُ إليها ، لاحقتها ، وجدّتُ نفسي مشدوداً إليها ، لا أقوى على الانفصال عنها ، لن أطيق الانفصام عنها ، ولكنها مضتْ تتقهقر . تقهقرتْ حتى ردّها من الخلف نتوء صخري فتوقفتْ . ضاقت مقلتاها . زحف عليها غمّ لم أرَ له في حياتي مثيلاً . مزيج من

اليأس والغمّ والعجز . فتحتهما فتنزّل من المقلتين سائل . رأيته كيف ينحدر على الخطم حتى سقطت قطراته على حجارة السفح . أغمضتْ عينيها وبدأت ترتجف . ارتجّتْ بعنف قبل أن تفتحهما لأرى فيهما وميضاً جديداً ، وميضاً آخر ، تصميماً حقيقياً ، شجاعة المخلوق عندما يقرّر أن ينهي الأمر ويأتي بطولة. و .. فجأة انطلقت . انطلقتْ نحوي في قفز مميت فتنحيتُ في آخر غمضة. تنحيتُ مستلقياً على قفاي فرأيتها وهي تقفز في الهواء وتختفي وراء الصخرة . وقبل أن أستفيق مما حدث سمعتُ ارتطام جسمها الثقيل بالأرض . وثبتُ فوجدتُ أن الصخرة التي اعترضتنا لم تكن سوى السدّ الذي منع جسدينا الملتحمين من السقوط في الهاوية . تفقّدْتها من عليائي فلم أستطع أن أتبينها بين الصخور بوضوح . نزلتُ السفح قفزاً . اعترضتني الصخور فاحتلتُ عليها مراراً . عثرتُ في الحجارة فسقطتُ أرضاً وتدحرجت . تدحرجتُ مسافة طويلة . تدحرجت المسافة كلّها قبل أن أبلغ حضيض الهاوية . الدّم غسل أطرافي ، ولكني عدمتُ الإحساس بأطرافي وبجسدي . وقفتُ فوق جسدها فوجدتُ أنها تحتضر ، ولكنها ما تزال تتنفّس . مضى جوفها المنفوش يعلو ويهبط . من خطمها نزّ الدّم وسال على حجارة الهاوية . من مؤخرتها أيضاً فزّ الدّم . أطلقت خواراً ، شهقة عميقة ، وتوتّر الجوف وضمر فلفظتْ مخاطاً ودماً سخيّاً قبل أن تلفظ الجنين دفعة واحدة .

هرعتُ إلى الجنين وتناولته بين يدي . كان رخواً مغموراً

بالدماء والأخلاط وخيوط المخاط . فـوق عينيـه غشـاوة لهـا شـفافية ستور العناكب . وراء الغشاوة احتجبت عـين مطفـأة . ارتجـف بـين يديّ مرّة ، مرّتين ، ثمّ .. همد . همد إلى الأبد .

الأم أيضـاً ارتجّـت لتلفـظ نَفَسَـها الأخـير في ذات اللحظـة بالضبط.

٤. العشيّ

ذهبتُ إلى الغار الموسوم بوصايا الأولين ومكثتُ هنـاك أيامـاً . عفتُ الطعام ، واشمأززتُ حتّى من الشريحة التي أشعلت النهم في قلبي يوم احترقتْ بنار السماء الشاة الملفقّة من جسد الغزال ورأس الودّان.

وكنتُ كلما تذكرتُ طعمها طاف في رأسي شبح أنثى الودّان وهي تلفظ وليدها ميّتاً مع المخـاط ، ثـم تلفـظ أنفاسـها أيضـاً فـراراً منّي، فلا أملك إلاّ أن أتقيّأ حتى كدتُ أن ألفـظ أمعـائي ، ولم أجـد العزاء إلاّ في الركوع تحت الأشباح التي أختطّها سحرة الأسلاف على صلد الجدران لأستعطفها الغفران . كنتُ قد فكّرتُ في أمـري طـوال يومين متتـاليين بعـد هـلاك الأنثـى ووليدهـا فلـم أجـد الشـفاء إلاّ في الاعتراف بالحقيقة . أدركتُ ، بعد جدل طويل بيني وبين نفسي ، أن سبب عراكي طوال الوقت مع القطعان ليـس الفـوز بالجمـال ، كمـا حاولتُ أن أقنع نفسي في البداية ، ولكن لنيل الغنيمة التي تستطيع أن تسكت نداء النّهم في جوفي . أجل . النّهم هو السبب . نـداء الشّـرَهِ الذي استزرعه التقام تلك الشريحة المشؤومة ، فسمّم بدني ، وكشف لقبائل القطعـان قنـاعي ، هـو السـبب . فكيـف السـبيل للتحـرّر مـن السموم والتنصّل من الخطأ ؟

ولكن نـداء الجوع إلى اللحـم ، كما بدا ، كـان أقـوى لأن إحساسي بالغثيان تبـدّد بالأيـام ، وشبح الأنثى مـع وليدهـا تلاشى أيضاً، فوجدتُ نفسي أحوم حـول مراعـي القطعـان دون أن أدري . حمتُ طويلاً ، ولكنني أخفقتُ في اقتناص الطريدة من كلا الجنسين ، فاضطررتُ أخيراً إلى استخدام تميمـة أخرى أطلقـتُ عليهـا إسـم : "**إيغف** " (*)

أتيتُ من الأحراش بعراجين النخل الطازجة وبدأتُ أحبكها في شكل دائري . أحكمـتُ الجرم المستدير بقطـع السعف ، وخرقـتُ قلب الدائرة بصفوف العيـدان المشـدودة إلى الإطـار المستدير بخيـوط المسَد ، وأطلقتُ على هذه الحبكة اللئيمة اسـم " **تَسَنْسَمْت** " (**) . ذهبتُ بعدها إلى المرتع . حفرتُ هوّة بطول ذراع . وضعتُ حَبْكَتِي اللئيمة فوق فوهة الحفرة بالضبط . فوق الحبكة نـثرتُ بعض اليبيس والأعشاب حتى اختفـتْ عـن الأنظـار تمامـاً . نظرتُ إلى مـا عملتـه يداي فوجدته حَسَنَاً جدّاً ، فالتجـأتُ إلى شـجرة طلـح قريبـة لأخلـد للراحة هناك كـي أجـازي نفسـي علـى تعبٍ أحسـنتُ فيـه عمـلاً . هجعتُ تحت طلحة كثيفة ، وبدأتُ أحلم بالترياق الـذي أعـادني إلى الذاكرة حتّى أني لم أدرِ كيف ولا متى استدرجني النعاس .

(*) الرأس ، العقل .

(**) الفخّ ، الشَّرَك .

نمتُ بعمق ، ولم أستيقظ إلاّ عندما اختطّ الفجر طلسمه في الأفق . نزلتُ السهّل ، ولكني لم أجد في المكان لا الشَّرَك ولا فريسة الشرَك . تفقّدتُ الموقع بحرص فوجدتُ بجوار الفوهة نتفاً من الزغب، فأيقنتُ أن الطريدة التي فرّت بحبكتي من سلالة الغزلان . تتبعتُ الأثر عبر المنحدرات التي تتلوّى لتفضي إلى الوديان الشرقية الشمالية. نزلتُ القيعان الوضيعة ، ولكن الأحاضيض ما لبثت أن تعالت وتصاعدتْ لتتحوّل ، في المسافات التالية ، شعاباً تتأهب لاعتلاء هامات الصفوف الرملية المكابرة . في أوحال القيعان عثرتُ على الأثر بوضوح أشد . حامتْ الضحيّة حول شجرة طلح مراراً كأنّها تستنجد بها لتعينها على التحرّر من القيد ، ولكن الشجرة انتهشت من جسد الضحية نصيباً تجلّى في فروة الزغب العالقة بالأشواك . في المنعطف الشرس الذي كابر فيه الوادي ليتحوّل شعاباً تتطاول في الأعالي وجدتُ دماً على الصخور الصقيلة التي تزاحمت في مصب الوادي كغابة من الحجارة .

تقافزتُ فوق قممها الملساء المستديرة استدارة أضرحة الأسلاف في الصحراء الشمالية فعدمتُ الأثر مسافة طويلة . ولكني اهتديتُ إليه مرّة أخرى ما إن اجتزت غابة الحجارة وبدأت الشعبة تتسامح وتتساهل وتعلو . في الرقعة السمحة تخلّفتْ إلى الوراء الأشجار، وتخفّتْ في الأسافل الأحجار، فراراً من زحوف المارد الرملي ، ولم يتبقّ في الساحة إلاّ الأعشاب الوضيعة التي تتلبّس

الأرض مستجيرةً من نار السماء برمضاء الألسنة الرملية الغازية . تبيّن الأثر على الأرض الرملية بوضوح أشدّ . ويبدو أن الضحيّة استماتت في محاولاتها للتخلّص من الشرَك ، لأن العراك في هذه المسافة أدّى إلى استنزاف الدم واستسلاخ قطع من الزغب المرويّة بالدّم . ثمّ.. اختفى الأثر فجاءةً . عدت أدراجي لأستطلع المكان الذي انشطرتْ فيه الشعبة إلى لسانين في رحلة صعودها إلى أعلى . سلكتُ اللسان الثاني الذي انحرف شرقاً . ولكني لم أجد فيه أثراً . وقفتُ . تلفّتُ حولي . تلفّتُ جنوباً ، ثم شمالاً ، فرأيتها . رأيتها بقلبي قبل أن أراها ببصري . أحسستُ بوجودها قبل أن أدرك وجودها . ولولا هذا الإحساس الغامض لما رجعتُ أدراجي ، ولما سلكتُ اللسان الثاني ، ولما توقفت في ذاك المكان دون غيره ، ولما تلفّتُ نحو اليمين ونحو الشمال لأراها مختبئة في هوّة تقع بين اللسانين ، تحجبها عن الأبصار عليقة حلفاء كثيفة متيبسة الأغصان ، يسهم الفخّ المطروح في الفجوة في إخفائها ، ترتعد بشدّة خوفاً وألماً ، ينزّ من خطمها المخاط ، ينزف من رجلها المحشورة في أسنان الشرَك دم طازج ملوّث بكتل الطين المتيبّس . ويبدو أن النداء الخفيّ الذي استدرجني ليعيدني إليها كان نبوءة ، لأني اكتشفتُ عندما أمسكتُ بها أن رجلها قد تحرّرتْ من الفخّ و لم تتشبّث أسنان الشرَك إلاّ بالحافر حتى أن الشاة كانت ستتحرّر حتماً لو فزّتْ من مكمنها . أمسكتُ بها بيدين راجفتين فوجدتها تتزعزع برعدة أشدّ .

من عينيها فزّ الخوف ، والبراءة ، واليأس ، والجمال ، فاحتضنتها بين ذراعي وضممتها إلى صدري دون أن أدري لماذا . ربما لأن الإيماء في مقلتيها الكحلاوين الواسعتين كان أقوى من أن يقاوم . ربما لأن النبوءة التي رأيتها في عينيها العميقتين لن تتكرّر . ربما لأن الإشارة التي قرأتها في وميض مقلتيها كانت حميمة وأليمة في آن فأعجزني البلبال عن اكتشاف سرّ الحميمية ، وسرّ الألم ، لأن نداء النّهم استطاع أن يكتم في قلبي صوت الحقيقة التي لم أدركها إلاّ بعد أن نحرتها بحجرٍ حادّ ، وسلختها ، وأكلتها .

سكَتَ النداء المميت ، فعلا الصوت . انقشعت البلبلة ، وتبدّدت الظلمات ، وتكشّفت المجاهل فسمعتُ البيان الذي حدثتني به العينان في الإيماء . انبثق الإلهام فعرفتُ في العينين الغزالة الأم التي أنقذتني من الهلاك مرّتين . مرّة عندما استدرجني أهل الخفاء الأشرار المتنكرين في بدن أرنب النحوس فأضعتُ السبيل في بحثي عن الأب ، ومرّة عندما ضاقتْ بي الدنيا ، يوم نحرتُ بالمدية الأب ، فوجدتُ نفسي وحيداً ، مهجوراً ، منبوذاً ، لا مكان له بين الخلق مثلي مثل " أنوبي " ، فأقبلت الأم ودستني في جلدها وفرّت بي بعيداً لتنقذني مرة أخرى بحيلة المسوخ .

٥. الغَسَق

المغامرة الدامية كانت بداية القطيعة مع القطعان .

أنكرتني القبيلة منذ ذلك اليوم فتطاولت في الأعالي لتعبر إلى المجهول .

هاجرتْ الغزلان شمالاً .عبرتْ القمم الرملية المكابرة لترمي بنفسها إلى بحر الرمال العظيم . هاجرتْ قبائل الودّان جنوباً . تسلّقتْ الطوق الجبلي الجنوبي ، اجتازتْ إلى الصحاري الوعرة المؤدية إلى أوطان السلاسل الجبلية التي تروي القبائل ، في ملاحم الأجداد عن ارتفاع شعافها ، الأساطير . تتبّعتُ في البداية آثار الغزلان في مسيرها نحو الشمال ، ولكنّي عدت على عقبي قبل أن أنزل السفح الرملي الشمالي الذي يرمي بي إلى الواحة يوماً ، لأنّي تذكّرتُ أن الغزلان سلالة أعسر منالاً إذا سلكتْ أرضاً رملية ، في حين خمّنتُ أني أستطيع أن أدرك قطعان الودّان ، كمخلوقات بطيئة الحركة في سهول الوعوثة التي تتخلّل الصحراء الجنوبية قبل أن تتواصل في السلاسل الجبلية التي تُروي عن مناعتها الخرافات ، لأن أمل الودّان في النجاة دائماً أضعف إذا دخل أرضاً رملية ، وأمل نجاة الغزال أضعف أيضاً إذا دخل أرضاً جبلية كما تؤكّد الوصايا الموروثة.

تسلّقتُ الجبل ، ولكني وجدتُ عسراً في صعود الجلاميد العليا المؤدية إلى القمّة فقرّرتُ أن ألجأ إلى الحيلة ، فتّشتُ عن المنافذ السمحة في امتداد السلسلة إلى ناحية الغرب . استغرق ذلك اليوم كلّه فحلّ الغسق قبل أن اهتدي إلى فجوة . بحثتُ عن مأوى أقضي فيه ليلتي قبل أن تزحف الظلمة . هجعتُ في تجويف أسفل قدم جلمود عمودي في استعلائه سيماء الصنم . راقبتُ من عليائي الأسافل فتبدّت واحتي بقعة وضيعة لا تختلف عن غابات الطلح أو الرتم في بعض وديان الصحراء الشمالية . راقبتُ الأعالي فكلّمتني السماء العارية ، اللامبالية ، بلغة صارمة . كلّمتني فتساءلتُ لأول مرّة عن سرّ المسّ الذي يدفعني لمطاردة المخلوقات التي أنكرتني : هل ألاحقها بدافع النهم ؟ هل النّهم علّة ، أم حاجة ، أم شهوة ؟ أم أنني أطاردها وأستميت في مطاردتها حنيناً لنيل الجمال الذي لا أعرف لماذا أحسّ بأنني لا أقوى على الحياة بعيداً عنه ؟ أم أنني أطارد خوفاً من العزلة ؟ أم أنني أطارد بداع آخر مجهول ؟ أم أنني أطارد لأن الإنسان لابد أن يطارد حتى إذا لم يجد ما يطارد اختلق طريدة حتّى لو كانت هذه الطريدة وهماً أو أكذوبة أو خيالاً ؟ أم أني أطارد بدافع العناد الناتج عن إنكار المخلوقات التي كانت لي بالأمس القريب قبيلة، فأخرجتني بين يوم وليلة من صفوفها لأجد نفسي طريداً ، وحيداً ، مهجوراً مثلي مثل كلّ " أنوبي " في هذه الصحراء ؟ أم أن الدافع الحقيقي يتستّر بعيداً في وسوستي التي تحدّثني بأن الإنكار ، في

حقيقته ، ليس إنكاراً ، ولكنّه علامـة تخفـي حقيقـة هائلـة لهـا علاقـة بحقيقتي التي أعجزتني الحيلة في أن أكتشفها في نفسي ؟

تساءلتُ وتساءلت حتى تصدّع رأسي بـالوجع فغيّبـني النعـاس قبل أن أهتدي إلى أيّ جواب على أيّ سؤال لأستيقظ في فجر مـازال يتحجّب بالظلمات ، فانطلقتُ في ذلك الوقـت المبكّـر عمـلاً بوصيّـة سلالة الودّان القائلة : " تيكلي توفات ، تانهيت زرفات ، إتـا وضـد تاكيتنفات " (*) . .

عاندتُ الأنصاب الصخرية حتى تقهقر السّحر وتولّد في الأفق قبس . تسلّقتُ صلـداً منيعـاً فوجـدتُ نفسـي أعتلـي هامـة الجبـل في حيده الغربي . لم أستطع أن أتبيّن امتداد الأحاضيض بسبب العتمـة ، ولكـني تلمّسـتُ سـبيلي في عـراء أكـثر يسـراً ، ولم أكتشـف طبيعـة الأرض إلاّ بعد اندحـار الظلمـة وانتصـار الضيـاء : كـانت المسـافات محروثـة بالمرتفعـات الجبليـة الكئيبـة في لونهـا الوضيعـة في ارتفاعهـا ، تتجاور حيناً وتتقاطع أو تتماهى حينـاً آخـر ، تتعـالى أحيانـاً وتهـوي حتى تجبّها السهول أحياناً أخرى ، ولكن مسـتواها في الشـمول ظـل سطحيّاً إذا قورن بشموخ الجبل في جانبه الخلفي حتـى أن الواحـة في أسفله تبدو هاوية لا سهلاً .

(*) " السفر صُبحاً ، التبكير فجراً ، تدرك غايةً " . (لسان الطوارق) .

فوق وسم الرمل الذي طوّق خاصرة أحد هذه المرتفعات عثرتُ على بعر ودّان . سحقته بين أصابعي فوجدته طازجاً ، ولكن أثر الشاة اختفي باختفاء الوسم الرملي فلزمتُ المرتفعات التي أعرف أن سجيّة الودّان لن ترتضي حصوناً سواها . لزمتها حتى انتصف النهار، ولكني لم أدرك شاة واحدة . أصاب الجفاف حلقي ، وتيبّس لساني وشفتاي ، ونزف بدني مخزونه من العرق ، فأدركتُ أني خنتُ الوصيّة عندما لم أستجب للصوت الخفي الذي وسوس لي بالإقلاع طوال الوقت والعودة إلى الوراء قبل فوات الأوان . فتشتُ عن شجيرة أو صخرة أستظلّ بها حتى زوال الهجير، ولكن الأرض كانت من ذلك الجنس الفاجع الذي تقول القبائل أن لعنة أصابته يوماً فحرقته نار حامية انبثقتْ من جوف الصحراء ، فانقطع فيه الزرع ، واختفت بذار النبّت ، ولم تعد تربته تُنْبت إلاّ الأحجار .

قررتُ أن أعود ولكني فكرت أني سوف لن أستطيع أن أنجو إذا لم أجد مكاناً أحتمي به من هجير القيلولة . ارتكبتُ خطأ آخر ، كما اكتشفتُ فيما بعد ، لأني تجاهلتُ الصوت مرّة أخرى وذهبتُ إلى الأمام على أمل العثور على ظلّ وراء الرابية المغمورة بسيول السراب .

سرتُ إلى الأمام ، ولكن الرابية ابتعدتْ كلّما اقتربتُ كأنها تتهرّب منّي .تذكرتُ حيل السراب في صحراء الشمال ، فأيقنتُ أني استبدلتُ رمضاء بنار ، والبلبلة قادتني في سبيل الخطر للمرّة الثانية .

أصاب الرؤية خلل فازدوجت في وجهي الأشياء ، وتزعزع البدن بوهن مباغت ، فترنحتُ ، ثم ركعتُ في خلوة أبدية صارمة تحترق بالرمضاء وتغتسل بالنار . ساعتها فقط أدركتُ أن جرمي ليس في أنني توغّلتُ في الصحراء أكثر مما ينبغي ، ولكن في خروجي إلى الصحراء بحثاً عن شيء آخر غير الماء . أدركتُ أخيراً أن الأقدار وضعتْ بين يديّ كل ما أحتاجه فشققتُ عصا الطاعة وخرجتُ في طلب ما لم أكن يوماً في حاجة إليه ، فاستحققتُ الغضبة وقصاص الرمضاء .

أدركتُ بوضوح أن جرعة الماء هو كل ما أحتاج إليه ، فلماذا استهنتُ بالفيض ، بالينابيع ، بالحياة ، وخرجتُ كالممسوس بحثاً عن الوهم ، عن الأكذوبة ، مستبدلاً الحياة بظل الحياة ؟ وها أنا أرتمي في الخلوة المميتة ، أفتّش عن البلل في الحصباء ، ولا أجرؤ على التفكير في الماء السخيّ الذي تركته ورائي لأن كل ما أحلم به هو ظلّ يقيني نار السماء وينقذ في جسدي ما يستطيع إنقاذه من كنزي المفقود .

زحفتُ مسافة ، ولكن الرمضاء حرقت يديّ فلحستهما بلساني ، وسقطتُ على صدري ومرفقيّ وبدأت اتلوّى زاحفاً على بطني كالحيّة . ولكني لم أقوَ على الزحف مسافة طويلة ، فهجعتُ على ظهري . احترق وجهي بقصاص السماء واحترق ظهري بقصاص الأرض . احترقتُ حتى فقدتُ الإحساس بالحريق واستشعرتُ زحف الغيبوبة . لا أعلم كم من الوقت استغرقتْ غيبتي،

ولكن الجرعة التي أعادتني إلى الحياة سبقت يقيناً صوت النبوءة التي سمعتها من فم الرسول الذي انتصب فوق رأسي :

– ليس حكمة أن نهمل ما نلنا ، لنبحث عمّا لم ننلْ !

وضع فم شكوته في فمي فانساب الماء في حلقي ، وأحسستُ به يسري في بدني ، ويتسلّل في دمي ، ويعيد لي قواي . استعدتُ القوّة لاستعمال يديّ فقبضتُ على الشكوة بجنون الظمآن وحاولتُ أن أسكبها في جوفي دفعة واحدة . ولكن الرسول انتزعها منّي وأبعدها عن فمي ليقول :

– هذا هو الجواب . هذا هو السرّ . السرّ في النّهم .

كنتُ ظامئاً ، كنتُ قد عدتُ للتوّ من رحلة إلى المجهول ، وكان حلمي أن أستزيد من الترياق الذي استعادني من قبضة الغول . أومأتُ بعيني ، توسّلتُ بعينيّ لأني فقدتُ القدرة على القول مثل كل الذين وقعوا في قبضة الغول يوماً وأعادتهم الأعجوبة إلى الصحراء أحياء . ولكن الشبح منع عنّي الشكوة ليلقي في قلبي بوصيّة :

– أُنزلتَ نعيماً فخنتَ العهد !

ولكن لساني تلجلج بوصية أهل الظمأ :

– الماء !

– نِلْتَ الماء فخنتَ الماء بالخروج ، فإلى أين أيّها الإنسان ، إلى أين ؟

– هبْني جرعة أهبكَ سرّاً .

- لا سر لمن أنكر سرّه .

- هل أنكرتُ سرّي لأني خرجتُ في طلب القوت ؟

- لقد جعلنا لك من فاكهة النخيل قوتاً ، فلا تكذب !

- فاكهة النخل قوت ميّت !

- ميّت ؟

- قوتٌ ميّت القوت الذي خلا من لغز اسمه الجَمال .

- الجَمال كنز يحيي لا بلاء يميت .

- كيف السبيل لنيل الجَمال يا مولانا ؟

- نخطئ الجَمال دائماً عندما نخرج في طلب الجَمال .

- لم أحلم بنيل شيء يا مولاي كما حلمتُ بنيل الجَمال ، ولكني عندما خرجت يوماً في طلب الأب تهتُ ولم يكن مقدّراً لي أن أعود إلى الوراء لو لم أجد نفسي مدسوساً في قمقم المسوخ .

- أرأيت ؟ هذا قصاص . ما كان يجب أن تبحث عن شيء لم تجده في قلبك . أنت الجَمال ، أيها الإنسان ، وأنت الأب . أنت النبوءة ، أيها الإنسان ، وأنت الكنز !

تغنّى بالقول كأنّه يقرأ أشعاراً . ترنّح كصاحب الوجد يميناً ويساراً . أطلق آهات الوجع كما يفعل أهل الحنين . استعدتُ قواي وبدأتْ الحياة تدبُّ في بدني . قلتُ :

- يئستُ يوماً من طلب الأب فاخترتُ الخروج في طلب "**تارجا**" ، ولكن الخفاء رمى بي إلى الواحة التي لم أعرف لها اسماً .

- ما يريده بنا الخفاء دائماً أنبل مما نريده بأنفسنا .

- لم أفهم .

- الواحة التي لم تعرف لها إسماً حقّ ، ولكن " تارجا " باطل في باطل !

- لم أفهم .

- تارجا أيضاً واحة ضائعة !

- لقد سمعتُ في القبيلة كيف يتحدّثون عن القوافل المتجهة إلى " تارجا " .

- تذهب إلى " تارجا " تلك القوافل التي لن تعود . تذهب إلى " تارجا " القوافل الضائعة .

- تارجا ضائعة ، والناموس وصايا ضائعة ، وأهل الصحراء قبيلة ضائعة ، فهل نحن "**إينوبا** " * ؟

- كلّنا " إينوبا " . كلّنا ظلال عابرة .

- ولكن ... من أنت ؟

- أنا ظلّ عابر .

لم أكن أستطيع أن أتبيّن ملامحه بوضوح بسبب الوهن والدوار وغيبوبة الامتحان ، ولكن الشرر الذي انبثق في قلبي حدّثني بنبوءة فتساءلت :

(*) إينوبا : جمع " انوبي " (أنوبيس) الأبناء المجهولو الأب . سلالة السماء . ذريّة الآلهة . (لسان الطوارق) .

- ألم تجمع بيننا مشيئة الخفاء مرّة ؟

ولكنه تشبّث بجوابه الغامض :

- ما أنا إلاّ ظلّ عابر !

أنار الشرر في قلبي الزاوية المحتجبة بستور الظلمـة فاستجمعت قواي ونهضتُ على مرفقيّ . تشبّثتُ بلثامه الأزرق الذي تلامع تحت ضياء الغسق من شدّة الزرقة وهتفتُ دون أن أدري :

- مهلاً ! أنت الأب ! هل أنت الأب ؟

حدّق في وجهي مليّاً . ضاقت عيناه حتّى اختفت منهما المقلتان ، ولكنه عندما فتحهما رأيتُ فيهما بسمة جذّابة ، بسمة طفل نال البُغيـة . غالبتُ الدوار مرّة أخرى ، ولكني سمعتُ نبوءته بوضوح :

- هل يحتاج من كانت له السماء أباً إلى أب ؟

- سمعتُ وصيّةً تقـول أن الأبـوّة تريـاق الشـقوة ، ولا سـعادة لمخلوق لم يهتدِ إلى الأب ، فمن أنت ؟

مضى يسدّد بصره نحوي صامتاً . بسمة الطفولة في عينيه ازدادت وميضـاً . ازدادت أُلفـة . ازدادت حميمية فابتسـمت أيضـاً لإحساسـي الخفي بأنه يتأهب ليسمعني بشارة . تمّنيتُ أن يعجّل لأروي ظمئي مـن الحقيقة قبل أن تحلّ في قلـبي البلبلـة وتستعيدني الغيبوبـة . ولكنـه ، كمـا خمّنت ، تمهّل عمداً ، لأني لم أسمع مـن فمـه النبـوءة إلاّ في اللحظـة الـتي أحسستُ فيها بالوشوشة التي تسبق زحف الظلمات وحلول الغيبوبة :

- أنا هو أنت !

٦. الجهمـــة

– رسول استطلاع كان لنا في السبيل دليلاً !

هكذا أخبروا عندما نزل الأغراب واحتي لأوّل مـرّة . هرعـتُ إلى لقـائهم دون أن أخفـــي دهشتـــي . سألتهـــم عنـــد نزولهـــم المنحدر المحصور بين جبال الغرب الرملية وجبال الجنوب الصخرية :

– من أنتم ؟

فأجابني كبيرهم الذي تقدّمهم :

– عابرون نال منهم الظمأ .

– كيف عبرتم الوعر لتصلوا إلى هنا ؟

– رسول استطلاع كان لنا في السبيل دليلا !

– عجباً !

– هلا أرجأتَ العجب إلى حين ، وسقيتنا من نبعك ماءً ؟

قُدتهم إلى أقرب حرجاتي الأربع . ركعوا لينهلـوا مـن النّبـع . دسّوا أفواههم في الغمر حتّى غابت أنوفهم ووجوههم . اندفعـت إلى الغمر دوابهم أيضاً . ووقفتُ فـوق رؤوسـهم وانتظـرتُ أن يرتـووا . راقبتهـم وهـم يتلـذّذون بالمـاء حتـى استيقظ في قلـبي الظمـأ أيضـاً . أستيقظ في قلبي ذلـك الظمـأ المتخفّـي في خبايـا كـل صحـراوي منـذ

الميلاد حتّى أنه لا يستطيع أن يرويه حتى لو تجرّع مياه الدنيا كلّها . استيقظ في قلبي الظمأ الذي انقلب وسوسة غامضة منذ ذلك اليوم الذي نال مني العطش عند خروجي في طلب الأنعام . وبدل أن أُبعد القوم عن الماء كما أبعد رسول الخفاء يومها عن فمي القِرْبة ، وجدتُ نفسي أرتمي على ركبتيّ أيضاً لأنهل من الغمر . نهلتُ و لم أفق إلاّ على صوت ربّ القافلة مردّداً باللسان الملحون :

– أربعة ! أربعة ! ليس نبعاً واحداً ، ولكنّهم أربعة ، فماذا فعلتَ حتّى وهبك الخفاء من كنوزه أربعاً ؟

أجبتُ ببلاهة مَنْ اعتزل الناس طويلاً ونسي نواميس اللسان :

– لم أفعل شيئاً . كنت أبحث عن الأب !

حدّق في عينيّ طويلاً . ثم فرّ ببصره نحو القمم الجبلية الجنوبية، بل اعتلى القمم ، وعبرها إلى أعلى ، فومضت مقلتاه بإيماء كالحنين . دمدم صدره بأوجاع الشجن ، وترنّح كأهل الوجد قبل أن يقول :

– لا ينال الكراء كما يناله من وضع البحث عن الأب نصب عينيه .

– ولكنّي قتلته !

– ماذا ؟

– الجنيّة قالت أني قتلتُ الأب !

تغنّى بحنينه المكتوم مرّة أخرى . هاجر بعينيه عبر الفراغ الأبدي العاري . زعزع الشجن منه المنكبين . تحوّل الإيماء في مقلتيه

دمعاً حقيقياً . ردّد :

- كلاّ ، كلاّ . أنت لم تقتل الأب ! أنت لا تستطيع أن تقتل الأب . أنت قتلت ظلاً ، ولكنّك نلتَ الأب ، صدّقني !

ثم التفت إلى الأعوان وأمرهم أن يجلبوا العطايا : اللحوم المجفّفة ، الألبسة ، والجلود ، والأوعية ، ولوازم كثيرة أخرى لم أدرك لها نفعاً إلاّ فيما بعد . قال وهو يكوّم الحوائج تحت قدميّ :

- لابدّ أنّك تألّمت كثيراً .

- لم أفهم .

- من لا يتألّم لا ينال . كل عطاياي لن تُقاس بما أعطيتني . عطيتك أَحْيَتني ، عطيتك سوف تُحيي !

هممتُ بأن أحاجج ، ولكنه استوقفني بإشارة من يده :

- هذه لحوم أنعام ستقيك الحاجة إلى لحوم ذوي القربى .

- لحوم ذوي القربى ؟

- الرسول الذي دلّنا إليك أنبأني بكل شيء !

- لم افهم !

- الرسول أخبر أنّك خرجتَ في طلب ذوي القربى حتّى أنك كدتَ تهلك عطشاً .

- خرجتُ في طلب الجَمَال !

- الجَمال ؟ هل قتلت الجمال ؟

- الظمأ إلى الجمال يا مولاي أقسى من الظمأ إلى الماء !

- ولكن الجمال ليس جمالاً إذا لم ننله . الجمال ليس جمالاً إذا لم ينلنا . الجمال ليس جمالاً إذا لم نتلبّسه ويتلبّسنا تلبّس المسوخ للمسوخ .

التفت إلى الأعوان وأمرهم بإحضار دابتين من دواب القافلة . وضع رسن الدابتين في يدي قائلاً :

- هذا جمل وهذه ناقة . سوف تستعين بهما على أعباء دنياك!

بات ليلته في ربعي . وفي الصباح تزوّد بالمياه ، وحمّل البعائر أثقاله وانطلق بعد أن عانقني وأسمعني لحناً شجيّاً من لحون الحنين ظللت أردّده في سرّي ليكون لي في عزلة الزمان عوناً .

٧. البُهـــــرة

مـرأى الدابتـين السـارحتين في السـفوح ، الغـارقتين بجرميهمـا حتّى كلكليهما في الحشائش الملتفّة التي جـادت بهـا صحـراء ارتـوت بالغيوث السخية الأخيرة ، تستثير في نفسي سعادة مـن ذلـك الجنس النادر الذي نستطيع أن نحياه ، ولكننا نعجز عندما نحاول أن نعبّر عنه بالقول حتى أن غموض هذا الإحساس كثـيراً مـا دفعـني لأن أتسـاءل عن سرّه : أهو مشهد الدابتين ، أم مرأى العشب المكثّف ، أم اعتدال الأجواء ، أم خلوّ البال ، أم أن السـرّ في كـل هـذه الهبـات مجتمعـة ؟ أستطيع أن أعترف بفجائيـة الإحسـاس ، عـلاوة علـى تفلّتـه وتبـدّده كلما حاولت أن أتملّكه وأستبقيه لأتلذّذ به لأطول أمد . ولكن الخيبـة التي تعقبه كانت مريرة دائماً ، فهل السعادة وسوسة متذبذبة تحل فينا في الوقت الذي نغفل فيه عنها حتّى إذا أدركناهـا وحاولنـا امتلاكهـا انسلّت من بين أيدينا وفرّت بعيداً ؟

ولكـني حـاولتُ أن أحتـال علـى السـعادة أيضـاً كـي أمتلــك السعادة . احتلتُ على السعادة بتجاهل السعادة كي أحقق الأعجوبـة وأوقع بهـا في الشَـرَك ، فاكتشـفتُ أن هـذه المعشـوقة لا تعشـقنا إذا تعشّقناها . لا تعشقنا إذا لم نتخذ من دونها معشوقة أخـرى . وكـان

عليّ أن أنساها ، أو أتناساها ، كي أحقق هذه الأعجوبة ، فاتخذتُ من الناقة دمية أداعبها في المربد كل صباح قبل الخروج بها إلى المرتع. أجرّد رقبتها من القراد الذي يمتصّ الدماء من رقبتها ، وانتزع أعواد القشّ العالقة بسنامها وبطنها وفخذتيها ، أضمّد بمراهم الأعشاب الجراح التي أحدثتها الأشواك في جرمها أثناء تطاولها في أحراش النخل . وقد لاحظتُ أنها تتلذّذ بدبيب أصابعي فوق بدنها تلذّذاً يفوق تلذّذها بالتحرّر من القراد أو الأشواك أو أعواد القشّ ، فما كان منّي إلاّ أن أطلتُ الدعابة ، وأكثرتُ تمسيد بدنها محاولاً أن أبثّ في أصابعي حناني وشجني وحتى حنيني ، فلا تملك إلاّ أن تستجيب : تتململ بجسمها في البدء ، تسري في جلدتها رعدة خفيفة شبيهة بالرعدة التي تسري في أبدان كل البعائر عندما تجتاحهم جيوش الذبان اللجوج فينتفضون بجلودهم دفاعاً عن أنفسهم . ولكن الرعدة في الجلد لا تلبث أن يعقبها وَجْد مريب : تترنّح برقبتها يمنة ويسرة ، ترفع رقبتها المكابرة ، الناصعة ، إلى أعلى . تتألّق مقلتاها الكبيرتان الكحلاوان كمقلتيّ معشوقاتي الغزلان قبل أن تطلق أنيناً مكتوماً عميقاً متقطعاً لا أدري عما إذا كان شكوى ، أو نجوى ، أو نشوة . ثم تهوي برقبتها إلى أسفل لتتمسّح بمنكبي ، أو يدي ، أو وجهي ، تلثم ، بخطمها المبلّل بالزَّبد ، ساعدي أو أصابعي أو أنفي أو رأسي ، ولا تتوقّف حتى أتوقّف . وقد حاولتُ مرّة تجريد قرينها الجمل أيضاً من قراده وأشواكه وأعواد قشّه ، ولكنها ثأرت لنفسها منّي . تركتني

يومها حتى هجعتُ لقضاء القيلولة تحت شجرة طلح فتسللتْ حتى وقفتْ فوق رأسي . استيقظتُ فوجدتها تقف ورأسها مشدود إلى الأفق الذي لا تحدّه إلاّ الكثبان الرملية في شمال الواحة .

كانت تزفر أنفاساً سخيّة ، وتمضغ بوحشيّة كانها تجترّ . في مقلتيها كآبة وقلق ونيّة سوء . مددتُ يدي ولامستُ ساقها الأمامية فانتزعتها ولطمتْ بها كلكلها لطمةً قاسية . نهضتُ متّكئاً على مرفقيّ ، ولكنّها لم تمهلني أبداً . فوجئتُ بها تقفز في الهواء لتبدأ رفسي بأرجلها الأربعة . أصابتني في رأسي ، ومنكبي الأيمن ، وركبتي اليسرى ، ولو لم أعتصم بجذع الطلحة لما نجوت من شرها . وكان عليّ كي أسترضيها أن أمسّد بدنها بكلتا يدي مرّة في الصباح بالمربد، ومرّة في الظهيرة بالمرعى ، ومرّة ثالثة في المساء بالمربد .

ولكن العلاقة لم يقدّر لها أن تدوم طويلاً ، لأن أحد أصحاب القوافل أراد أن يجزل لي العطايا مقابل الماء فوضع إلى جواري امرأة قائلاً أنها أمَة اشتراها بماله في بلدان الأدغال وقرّر أن يتركها بين يديّ لتكون لي في دنياي معيناً .

كانت مخلوقاً خلاسياً ، مليحاً ، مستنفراً ، يتوثّب ، من فرط احتراسه ، كأنه يستعد للفرار ، أو يتأهب للإنقضاض . ولكنّي لا أملك إلاّ أن أعترف بأنه أيقظ في قلبي وسوسة خفيّة نسيتها منذ فرّق الخفاء بيني وبين جنّيتي المفقودة التي نلتُ على يديها يوماً علماً ، فما كان منّي إلاّ أن بحثّتُ في أحضان مخلوقتي الجديدة عن حقيقتي

المنسيّة. ولكن الأحضان لم تجلب لي السعادة ، لأن الجنيّة الجديدة لم تطمئن إليّ ، برغم تظاهرها باللّين ، بل لاحظتُ كيف ظلّتْ من أمري في شكّ طوال الأيام التالية . لا أنكر أني في بعض الأحيان نلتُ على يديها تسليةً ، ولكني لا أستطيع أن أدّعي أنها كانت تسلية حقيقية . لأن خلوّها من الجمال الذي أضعته بضياع الغزلان جعل منها تسلية خاوية . وقد ظننتُ في البداية أن خواءها واستنفارها وحذرها مسلك سبّبه الفزع ، وربما لعلّة النزوع إلى اعتزال أَلِفته في بلادها في الأدغال ، ولكني اكتشفت تالياً أن هذه الخصال لم تكن في حقيقتها إلاّ لهفة لمجاورة الأغيار ، وحنيناً لملاقاة النجوع ، فأيقظتْ في نفسي إحساسي القديم بتَيَتُّمِي ، وعزلتي ، وشلل حيلتي ، فقررتُ أن أقتصّ : تجنّبتها . استكبرتُ فانقطعت في كهوف الأسلاف ليلتين متتاليتين . انسلخت عنها متظاهراً بالإستهانة بهباتها ، ولكن الحقيقة أني لم أتحرّر من سلطان أحضانها كما تخيّلت لأن الوساوس بلبلتني في هاتين اللتين مكثتهما في مغاور السفوح الجنوبية أكثر من أي يوم مضى ، فأدركتُ أن هذه الجنيّة قد سكنتني كما لم تسكنّي سلفتها التي عرفتها يوماً حتّى أنّي هرعتُ لملاقاتها ما إن لمحتها عند حافة الوادي عندما نزلتُ الجبل عائداً إلى الواحة . ولكني تجاهلتها وذهبتُ لمداعبة الناقة في قاع الوادي لأني اكتشفتُ أن المخلوق الظامئ إلى الجَمال الذي وجده يوماً في الغزلان لن يكتب له أن يستعيد حلمه إلاّ في النوق التي تومض عيونها بروح الغزلان .

داعبتُ الناقة فلاحقتني الجنيّة خلسة . أنشدتُ لمخلوقتي الوديعة أغنية حنين فهمهمت المعشوقة بوجع ، وَبَثّتْني شجنها المكتوم. وبرغم انهمامي في النجوى ، وغيابي في دنيا الأغنية ، إلاّ أنني لم أغفل عن جنيّتي التي تطاردني والتي تخفّت وراء أكمة وضيعة تعزل السفح عن قاع الوادي . ألقت المعشوقة برقبتها المكابرة في حضني فعانقتها وهمستُ في أذنها قائلاً أنّي أحببتها لأنها حملت في عينيها سيماء مخلوقة أخرى عشقتها يوماً لأنها حملتني في جرمها عندما أشرفت على الهلاك عطشاً ، ثم عادت لتحملني مرة أخرى يوم أضعتُ أبي ، يوم أضعتُ حقيقتي ، فتأوّهتْ المسكينة تنهيدة فجيعة ، وترنّحتْ يمنةً ويسرةً على طريقة أهل الوجد عندما يستبدّ بهم الشجن . ولكن ... ولكن الجنيّة التي نسيتها في رقصتي الجنونية ما لبثتْ أن أفسدتْ الأمر كلّه عندما تبدّت فجأة كما تتبدّى كل الجنّيات فأجفلتْ المعشوقة بين يدي ففرّتْ بعيداً .

فرّت الناقة فوجدتُ نفسي أقف في مواجهة مخلوقة أخرى أبشع من الجنية وأقرب شبهاً بالسعلاة . ابتسمتُ لها بلا إرادة ، ولكن الشرّ الذي رأيته في عينيها أخافني فتقهقرتُ إلى الوراء ، ولكنها لم تتقدّم ورائي . حدّقتْ في عيني بمقلتين شريرتين ثم تركتني. اعتلت الرابية واختفت في منعطف الوادي عبر امتداده الشمالي .

حاولتُ أن أنسى ، ولكن الوساوس لم تتبدّد . أخافتني الوسوسة أكثر مما أخافني الوعيد في عينيها ، لأني تعلّمتُ أن الوعيد

وحي مزوّر في أغلب الأحوال ، ولكن الهاجس إذا استبدّ ما هو في حقيقته إلاّ نبوءة . ويبدو أن ما تعلّمته لم يكذّبني هذه المرّة أيضاً لأني وجدتُ سورة الجَمال في صباح اليوم التالي ميّتة فلم أشكّ أبداً أن الشرّ كان من تدبيرها ؛ وجدتها في المربد منفوشة ، بمقلتين جاحظتين، تنزف من منخريها مخاطاً مريباً ، فأيقنتُ أن جنيّتي هي التي دسّت لها سُمّاً في يبيس الحشيش . طاردتها لأوبّخها على فعلتها ، ولكنها كشّرت في وجهي كذئبة ، ثم رجمتني بوابل من السباب برطانة أهل الأدغال ، فتركتها وخلوت لنفسي في العراء لأستلهم الحِيَل . قلتُ لنفسي أن المخلوق الذي يدبّر هلاكاً لقرينه المخلوق صاحب شرّ لن يقف عند حدّ . وإذا لم أفلح في وضع الحدّ فسوف أكون الضحية التالية بلا أدنى شكّ . ذهبتُ إليها واستدرجتها بالحديث عن أسرار الكهوف . لم أحدّثها عن وصايا السلف لا ليقيني لاستخفاف ملّتها بالوصايا وبكل ما له صلة بالأسلاف وحسب ، ولكن بسبب سليقتها المعادية لهذه الأحاجي التي تراها خرافات ملفّقة وعارية من الحقيقة . ولكني غنّيتُ لها في سرّي : " من حيث تجيئين إلى هناك تعودين ، لأن الإنسان ، كالقافلة ، لا يكون إنساناً إذا لم يعد إلى المكان الذي جاء منه " ، ثم حدّثتها بلساني عن الأسرار التي تنتظرها في المغاور ، عن الأسرار الأخرى التي أخفاها الأوائل ، عن الكنوز التي أعجزتهم الحيلة عن حملها معهم إلى الأبديّة فدسّوها في أضرحة تحت أقدام الحيطان . استبدلتُ في روايتي الكنوز السماوية بالكنوز

الأرضية ، قلتُ أشعاراً عن الوصيّة الدنيوية ، ولكني تكتّمتُ على الوصية الأبدية . اشتعل الفضول في صدرها فتتبّعتني تتبّع الظلّ . سرتُ بها في سبيل الأعالي . تسلّقتُ صخور السفوح الجنوبية وأنا أتغنّى في سرّي عن ناموس المجيء والذهاب ، ولساني يلهج بسيرة الكنوز المزعومة . سلكتُ دروباً معقّدة . اجتزتُ جلاميداً وعرة . عبرتُ فجاجاً وأخاديد وشعافاً خبرتها أثناء تطاولي في المعقل الجنوبي طوال الزمن الماضي . أدركتُ المنفذ أخيراً . أدركتُ الشّق السرّي الذي أودى بي إلى التّيه عندما عبرته يوماً بحثاً عن أشقائي من قبائل القطعان .

تسلّلتُ في الشّقّ المنيع وانسلّ الظلّ ورائي . عبرتُ إلى الجانب الآخر . قطعتُ في عبوري مسافة كافية لتضييع الأثر . التفتُّ إليها لألقي في سمعها سؤالاً :

- أجنيّة أنت أم إنسيّة ؟

ابتسمتْ لي ببلاهة ، ولكنها لم تجب . ربّما استنكرت السؤال . ربّما ظنّت الأمر مجرّد دعابة ، ولكني قلتُ :

- جئتِ إلى واحتي محمولة على مطايا الجنّ ، ووضعكِ في يدي مارد من سادة الجنّ ، فهل يُعقل أن تكوني غير سليلة جنّ ؟ !

ساعتها تكلّمتْ . تكلّمتْ فسمعت القول كنبوءة تنبثق من شعفة الجبل لا من فم المخلوق المسمّى امرأة :

- هل وجد مولاي يوماً فرقاً بين إنس وجنّ ؟ ألم تحدّثني منذ

أيام كيف تلبّستَ جرم الغزالة لتنجو ؟

– صدقتِ . الحقّ أني لا يجب أن أبحث عن فرق لا بين الإنس والجنّ ، ولا بين الإنسان والغزلان أو الودّان ، ولا بين الأنعام والنّبوت التي تقتاتها الأنعام ، ولا بين النّبوت وطين الأرض الذي يغذّي النبوت ، فأنا كل شيء ، وكل شيء ما هو في الحقّ إلاّ أنا !

تبسّمتْ بدهاء ، ولكنّها لم تنبس . سكتُّ أيضاً ، ولكنّني في سرّي تغنيتُ بأنشودتي الجنونيّة : " من حيث تجيئين ، إلى هناك تعودين ، لأن الإنسان ، كالقافلة ، لا يكون إنساناً إن لم يعد إلى المكان الذي انطلق منه " .

تغنّيتُ حتّى بلغتُ برّ البرزخ الذي ينقطع فيه الحبل ، وتستحيل فيه العودة إلى الوراء . هناك ، في برزخ المجهول ، تركتها لقدرِها وفررتُ . قفزتُ قفز الودّان وتواريتُ وراء الجلاميد التي تحدّ البرزخ المميت من جهة الغرب . لم أتوقّف . ظللتُ أقفز كأنّني أفرّ من ظلّي ، أحتال على الصخور التي تعترض طريقي دون أن أتهاون في عجلتي ، ولم ألتقط أنفاسي إلاّ بعد أن قطعت في سبيل العودة مسافة بعيدة تلحّفت خلالها الآفاق بغيهب السماء ، فهجعتُ لأستريح . هجعتُ فغفوت من فرط الإعياء ولم أستيقظ إلاّ عندما تشرّبت الآفاق بقبس البهرة . فززتُ مفزوعاً لأني رأيتُ في سباتي نبوءة . رأيتُ في سباتي الجنيّة تزحف على الأرض زحف الحيّة وتفتّش في تراب الرمضاء عن الكنز . تحفر الذرّات النارية القاسية

بكلتا يديها . تحفر بجنون أهل الظمأ في أعماق يبيس تدري أنها لن تجد فيه شيئاً ، ولكنّها برغم اليقين لا تيأس . يسخر من شقوقها الخفاء فيلفّها بسيول من مائه المزوّر ، فيبدو الجرم المسكين ، عن بُعد، ألعوبة تتلاعب بها ألسنة السراب : تغرقها في اليمّ حيناً ، وتنتشلها لتطفو فوق سطح الغمر الموهوم حيناً آخر . هذا العراك أيقظ في قلبي شيئاً لم أعرفه . أيقظ في صدري إلهاماً جديداً ، وسوسة لجوجة عاركت النسيان طويلاً قبل أن تقول لي الذاكرة بانها ليست شيئاً آخر غير ما تسميه الأمم **شفقة** . الشفقة زعزعتني فقفزتُ من نومي وانطلقت في طريق العودة راكضاً . ركضتُ بجنون فاق الجنون الذي ركضتُ به في فراري . في طريقي إلى برزخ الهلاك هتفتُ مراراً : "لم أحسب يوماً أن سليل الجنّ يمكن أن يهلك ظمأ ، فاغفري لي ! " . كررت هتافي لأستعين به على قطع المسافة .

قلتُ بصوت مسموع أني سأقتل نفسي إذا هلكت المسكينة قبل أن أدركها لأن دمها في رقبتي . تساءلت عن سرّ الشفقة وأنا أبكي . وعندما أدركتُ البرزخ أخيراً وجدتُ أن الأوان قد فات . سمعتُ في المكان جلبة ، ثم رأيتُ في البُعد فلول القافلة التي التقطتها قبل أن أدركها .

٨. الصُّبــــح

وجدتُ نفسي في أحضان عزلتي مرّة أخرى ، فغنيّتُ شجوني ، وأنشدتُ وحشتي ، وتساءلتُ في الأشعار عن حقيقتي . أوجعتني الأشواق عن المجهول فحاولتُ أن أبثّ حنيني في جلاميد الحجارة . أبدعتُ بقطع الصلد نصباً بهيّاً ، تعمّدتُ أن أرفع هامته لأجعل من جرمه علامة ولأشبع نهماً خفيّاً أحسسته وسوسة لجوجة في نفسي برغم أنّي أخفقتُ دائماً في إدراكه بعقلي . وجدتُ النّصب حسناً ، يغتسل كل صباح بشعاعات مولاي " رغ " فيوشوش للسماء بسرّ استعاره من يديّ ، من نبضي ، من قلبي ، بعد أن استعصى على عضلة لساني ، فما كان منّي لمغالبة عجزي إلاّ أن تمسّحتُ بجداره مع مطلع كل نور ، وبُعَيْد مغيب كل نور .

بعد النصب أحسستُ بحاجة خفيّة أخرى . هل هي الحاجة إلى الأمان ؟ هل هي الحاجة إلى الدفء ؟ هل هي الحاجة إلى سكينة لا يهبها إلاّ العشّ ؟ كنت أعرف مسلك العزلة التي يروق لها أن ترتدي أقنعة كثيرة . وكنت أعرف أيضاً أن الظمأ إلى النصب لم يكن، في حقيقته القصوى ، إلاّ محاولة للدفاع عن النفس أمام معشوقتي العزلة نفسها . وكان عليّ أن أعرف أيضاً أن الحاجة إلى

عشّ ليست سوى وجه آخر من وجوه معشوقتي التي أستطيع أن أقسم بأني لا أستطيع أن أحيا بعيداً عنها ، كما لا أستطيع أن أحيا بجوارها . وكان عليّ أن أحيا طويلاً كي أدرك أن هذه السجيّة ليست حكراً على معشوقتي وحدها ، ولكنها طبع أصيل في كل معشوقة أصيلة . ولا أدري حتى الآن عمّا إذا كانت حاجتي إلى ذلك العشّ مبدعها الظمأ إلى الخلوة المعشوقة ، أم للاختلاء بنفسي فراراً من المعشوقة . كما عرفتُ أيضاً أن الحرّ والقرّ والريح ليست سبباً في هذه الحاجة ، لأني اعتدتُ أن أحتمي من الحرّ بظلال أحراش النخيل، ومن القرّ أو من زوابع الغبار في كهوف الأسلاف بالسلسلة الجنوبية . وقد لاحظتُ أن هذه الحاجة المجهولة قد تحوّلتْ مع مرور الأيام خواء مريراً ، بل ظمأً حقيقياً يستوجب الإرواء في أيام أخر . ولم أستعد الإحساس بالامتلاء إلاّ بعد أن استقطعتُ من أحراش النخيل أعرافاً سخيّة حبكتُ بها كوخاً مقبّباً ، مستديراً ، رأيته بهيّاً أيضاً ، فدخلته في اليوم السابع لأستريح . تمدّدتُ في جوفه فاحتضنني الجوف احتضان العشّ لفرخ الطير ، واحتوى بدني احتواء القبر لجسد الميّت فراقت لي الاستعارة إلى حدّ جعلني أطلق اسم " **آزكّا** "(*) على عشّي الخميم .

(*) آزكّا (بلغة الطوارق القديمة) القبر ، أو البيت ، كما تعني مدينة أيضاً في اللغة الليبية القديمة .

بلى . كان قبري حميماً حقّاً . اعتدتُ أن أهجع في جوفه فأسرح بعيداً ليلهمني الرؤى . كنتُ أحتمي فيه عند حلول الظهيرة ، وعند حلول المساء ، لأستلقي على ظهري وأسرح وأسرح ، فلا يوقفني برزخ ، ولا يعترضني حدّ . لا يسلخ عقبي حجر ، ولا يعترض سبيلي وعر ، ولا تتهدّدني في رحابه الهموم أو الزواحف أو الوحوش سواء أكان من سلالة الإنسان أو الجان أو الحيوان . أفعل في أحضان عشّي ، في أحضان رحلتي ، ما شئت دون أن يصيبني سوء أو يسيئني وسواس . أنطلق شرقاً وغرباً ، أشقّ الأرض عمقاً ، واختزل الأركان أفقاً ، أغوص في الأعماق ، وأسافر إلى السماء . من إحدى أسفاري إلى السماء عدت مرّة بسؤال : " **من أنا** ؟ " الذي أوجعني . أوجعني ، ربّما ، لأني لم أفلح في نيل الجواب عليه . أمعنتُ في الأسفار علّني أجد في الرحاب الخفية جواباً ، ولكني كنتُ أعود من الرحلة ، في كل مرّة ، خائباً . الخيبة أورثتني مرارة ، وكآبة ، وسويداء ، فخرجتُ من معقلي الحميم ذات يوم لأجد نفسي طريداً مرّة أخرى . لم أطرد هذه المرّة من أرض ، ولكني طُردتُ حتى من أرضي التي ابتدعتها يديّ . توقفتُ عن الرحيل بأجنحة الرؤيا ، واستبدلتُ أسفار المجهول بأسفار الجسد . همتُ على وجهي وأنا أتساءل بأعلى صوت :

" **من أنا** ؟ " فرددت مغاور جبالي الصدى ، ولكنها لم تبح لي بالجواب . زعزعت النبوءة امتلائي ، وخرّبت الوساوس سكوني ،

فسعيتُ في الأرض مكبّلاً بقدَر الخواء . لم أهجر قبري تماماً ، ولكني لم أجد فيه النعيم الذي وجدته فيه عندما اكتشفته لأول مرّة . ذلك أن إحساساً غامضاً تململ في صدري وعاد يشدّني إلى العشّ . والحقّ أن هيكل الكوخ ظلّ يدغدغني على الدوام ويستفزّ الفضول في قلبي . وقد جرّبتُ أن الإيماء الخاطف يتكتّم على كنز دائماً ، فإن تجاهلناه أو أهملناه توارى وانقشع ، وإن نبشناه ونازعناه كشف لنا عن سرّه ووهبنا نفسه . هذا التجريب ألهمني بمعاندة إحساسي الغامض زمناً ، فما كان منه ، بعد أسابيع ، إلاّ أن كشف لي عن حقيقته ، فقلتُ لنفسي ، بسبب الوحي ، أنّي لن أرتوي ، ولن أهدأ ، ولن أجلب لبالي السكون ، ما لم أزاوج بين نصيبي الحجري المهيب الذي أقمته عند حضيض الجبل ، وبين قبوي الحميم الذي نصبته في الأسافل .

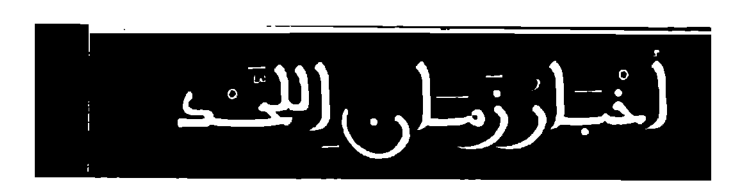
قلتُ لنفسي إنّي سوف أضع حدّاً للتشتّت وللوسوسة وللحنين وللخواء إذا أبدعتُ من الجرمين جرماً ، فكيف السبيل إلى القران ؟

فكرتُ طويلاً . سرحتُ طويلاً . وعندما اكتملت الرؤيا صعدتُ الجبل وبدأتُ العمل :

صنعتُ من النصب المهيب أساساً ، جداراً من جدران مثواي الجديد . صار النصب الجليل حجر الزاوية للبيت ، وكي تكتمل الرؤيا في البنيان قلتُ لنفسي أن البيت لا يكون عشّاً حميماً حقّاً إلاّ إذا حاكى في استدارته السماء ، أو القمر ، أو ربَّ الضياء " رغ " ، أو الأفق الذي يتقوّس ليحتوي الأرض ، فابتنيتُ الجدران مستديرة

استدارة أجرام أضرحة الأسلاف ، وعندما فرغتُ من الجدران ، أتيتُ بالأعواد والأعراف والمسد وسعف النخل من عشّي في الحضيض ، وحبكتها فوق الجدار المستدير لأبدع للبيت سقفاً مدوّراً استنزالاً لهيأة السماء وتثبيتاً لسيمائها الجليلة على الأرض .

اكتملت النبوءة فأحسستُ بالامتلاء . أحسستُ بالامتلاء ففاض قلبي وجداً ، وحنيناً وانتشاءً فغنيّتُ . غنيّتُ أغنية مديح شجيّة لصرحي المجيد الذي ركعت له الأقوام فيما بعد وأسمته **معبداً** .



" ثمّ التفتُّ أنا إلى كلّ أعمالي التي عملتها يداي ، وإلى التعب الذي تعبته في عمله ، فإذا الكلّ باطل وقبض الريح ، ولا منفعة تحت الشمس " .

الجامعة

(٢ : ١١)

١. الغـــــدوة

جاهدتُ كل زماني كي أنال أبي الأبدي في دنيا الأعالي ، ولكن الأب أبى إلاّ أن ينصّبني له خليفةً في دنيا الأسافل . عاندتُ كل أيـامي كي أناله في السماء ، ولكنّه رأى أن يجعلني سلطاناً على حضيض تهيـم في تربانه تلك الظلال التي تثقل كاهل الأرض .

فقد غَزَتْني القوافل في الأزمنة التالية ، فلم أعـرف أأهـل خفـاء أصحابها ، أم ذريّة إنس . وقد ساءلتهم مراراً عن حقيقتهم ، فكـانوا يجيبونني في كل مرّة بلهجة توحي باستخفاف خفيّ : " مـا نحن ، في الحقيقة ، إلاّ أنت ! " . كما استجوبت أكـابرهم أيضـاً عـن الكيفيـة التي رمت بهم إلى وطن محصّن بتدابـير الصحـراء ، فكـانوا يتبسّـمون خلسـة ويجيبـون بـالقول بـأن رُسـلاً دهـاة دّلوهـم إليّ . وإذا حـدث وسألتهم عن غايتهم ، كانوا يردّون على سؤالي باللسان الملحون : " مـن حيث نجيء ، إلى هناك رجوعاً نرجع ! " . كان بعضهم لا يخلـو مـن المرح . وكان بعضهم الآخر صارماً صرامـة موجعـة . ولكنّـي رأيـتُ بوضوح عشقهم جميعهم للسمر والسهر والترنّم بالألحان . يروق لهـم أن يقضوا لياليهم إلى جواري ليسترجعوا أهوال الطريـق . يتسـامرون بلغة ملحونة كأنهم يتبادلون الأشعار ، يغنّون أحياناً لحـون الشـجن ،

ويستغرقون في الحديث عن أحاج كثيرة كالأمل والباطل والسعادة ، ولا يتوقفوا عن لغوهم أحياناً حتى مطلع الفجر . وكانوا يتركون لي قبل أن يهاجروا مؤناً من اللحوم والأدوات والهبات مقابل الماء . وقد حدث في أحد الأيام أن ترك لي أحدهم عطية رهيبة كانت سبباً في الزلزال الذي جرّدني من سكينتي وقلب الواحة رأساً على عقب . كانت العطية كناية عن هباء لئيم يتراقص تحت أشعة الضوء قال أن اسمه : " تبرٌ " . ربّ القافلة أخبر أيضاً أن للهباء قدرة على استجلاب البضائع ، والبطش بالخلق ، وتحويل الأعداء أخلاّء ، وشراء الذمم ، وبناء العمران ، وتخريب المدن ، وقلب الأسافل أعالي ، والأعالي أسافل ، وتسخير الأرواح ، واستعباد الأغيار ، وتذليل كل منيع ، وصنع أيّ مستحيل ، حتّى انتهى إلى القول بأنه مارد برغم هشاشته، يستطيع أن ينقلب سوءاً إذا لم يُحسِن له صاحبه التدبير . فما كان منّي إلاّ أن رويتُ ظمئي بسماع السيرة ، ولكني لم ألجأ إلى استخدام الهباء إلاّ بعد مرور زمن طويل . ذلك أن إغواء المكوس ألهاني عن حقيقته ، فكنتُ أقايض مائي بشتّى أجناس السلع التي ابتدعتها سواعد الخلْق في أركان الصحراء الأربع : المآكل والملابس والأنعام وحتّى الأنام . بلى . بلى . نِلْتُ أناماً أيضاً مقابل كنزي .

اشتريتُ بسلطان مائي ، في زمان تالٍ ، أقناناً وأعواناً وحساناً ينتحلن سيماء الإماء . وقد التصقتُ بأجسادهن عندما استشعرت الحاجة إلى الدفء فوجدتُ في لعبهنّ أنساً يصلح ترياقاً للوحشة ،

كما استعرتُ من حيلهنّ تمائم تصلح بلسماً لمداواة أسقام البدن ، برغم أن مسلكهنّ وتذبذب أمزجتهنّ كثيراً ما استفزّني إلى حدّ ذكّرني بمسلك جنيّتي القديمة التي أستطيع أن أجزم الآن (وأنا أتنقّل في أحضان ما ملكتْ يداي) أنها مصابة بذلك الدّاء القبيح الذي يطلق عليه حكماء القبائل العابرة اسم " السويداء " . وهي علّة وجدتُ لها أعراضاً في مسلك جنيّة أخرى نزلت الواحة في موكب مهيب فاستهواني حُسْنها وفتنتني بصوتها فهِمْتُ بها حبّاً . ويبدو أن موهبة الغناء هي السر الذي أوقعني في أسر الجنيّة الجديدة وليس الحُسنْ ، لأن الصوت يخفي ، في حقيقته ، عمقاً ، ولكن الحُسْن وحده ، كما علّمتني تجاربي ، خواء ! وأستطيع أن أعترف الآن وأنعتُ نفسي بالجبن ، لأن المحاولات التي قمتُ بها للتخلّص منها لم يكن سببها غرابة أطوارها ، ولكن لخوفي من عشقها . بلى . لقد عاشرتُ عزلتي أمداً طويلاً جداً إلى حدّ أصبحتْ فيه العزلة معشوقتي الأولى التي أخشى أن أشرك بها خليلة أخرى . وبرغم يقيني الخفيّ بهذه الحقيقة إلاّ أني حاولت أن أحتال على يقيني وأقنع نفسي بأن رفضي لعشق الحسناء سببه حرصي على سكينتي وهدوء بالي . وهي كذبة ملفّقة أجبتُ بها الرجال الذين التفّوا حولي يوم أمرتُ باخراجها من الواحة ليسألوني عن السبب . امتثلوا فأخرجوها في صباح أحد الأيام كما أمرتُ . ولكنّي فوجئت الواحة كلّها تخرج وراءها . لم أصدّق . ظننتُ في بادئ الأمر أن زمرهم لم تخرج إلاّ

إشباعاً للفضول ، أو ربّما خرجوا ليشيّعوها كما اعتادوا أن يفعلوا مع الأكابر . ولكن ارتفاع أصواتهم الذي تبيّنتُ فيه ، فيما بعد ، نواحاً حقيقياً فاجعاً هو ما زعزعني فانطلقتُ خلفهم لأكتشف أن سرّ الجلبة كان الغناء . أجل . كانت الجنيّة ترفع عقيرتها بأغنية شجن مميتة حقّاً زلزلتني حتى عجزت عن المشي . وقفتُ في منتصف الطريق لأكتشف أني أبكي . استيقظ الحنين الدفين فبكيتُ أيضاً . ثم سددتُ أذني بسبّابتي لأسكت صوتها وأستعيد القدرة على المشي .

اختنق الصوت فانحلّت عقدة القدم . أطلقتُ ساقي ، ركضتُ، اقتحمتُ الجموع الباكية ، أدركتُ الأعوان الذين التفّوا حولها وهم ينوحون ويتباكون . صحتُ بأعلى صوت : " أعيدوها ! أعيدوها ! أعيدوها ! " .

أعادوها ولكني لم أعد . نلتُ في بيتي ربّة الغناء ، ولكني فقدتُ بالمقابل ربّ السكون . خلوت إلى نفسي مرّة وتساءلت عن سرّ البلبلة ، ولم أعد من المساءلة إلاّ بعد أن وسوس في أذني الخفاء بحقيقة أخرى تقول أن عاشق العزلة لن يسالم عاشق المرأة يوماً . كذّبتُ النبوءة وسلّمتُ زمام الأمر بيدها طمعاً في أن أنسى فحاولتْ أن تضع لي من أحضانها ترياقاً لمداواة دائي ، وغنّتْ لي في المخدع أغاني الشجون حتى أصابتني الغيبوبة . لا أنكر أنها فعلت ما بوسعها لكي تهبني تلك الأحجية الغامضة غموض الصحراء والمسمّاة في لغة الأمم الصحراوية : " **سعادة** " . ولكن هيهات ! هيهات لأني

أدركتُ أن السعادة طلسم من حق الأغيار الذين لم يعرفوا ولم يطلبوا ولم يهاجروا بعيداً . أما أهل العزلة فَقَدَرَهم أن يتسلّوا بالصمت لأن رسالتهم أن يجالسوا الخفاء . فاض قلبي بالحنين فاختنقتُ وفررتُ إلى كهوف الأسلاف في الشعاف الجنوبية . هناك استنطقتُ نبوءات الأولين المحفورة على حيطان المغاور ، وجادلتُ الخفاء كثيراً ، ولم أعد من انقطاعي إلاّ بوصيّة . دخلتُ الواحة ليلاً واختليتُ بأكثر الأعوان عقلاً ووفاءً لأسرّ له بأمر الوصيّة . قرأتُ الاستنكار في عينيه ولكنه امتثل . خرج ليجيئني في اليوم التالي بحاجتي . كانت صرّة جلديّة كئيبة اللون ، ملآنة بغبار أكثر كآبة ، أخفيتها في عبّي وانتظرتُ حتى جاء الخدم بالطعام فطرحتُ الهباء كلّه في الحساء . أقبلت الجنيّة واحتست الحساء وأكلتْ ثمّ غنّتْ حتى منتصف الليل كأنّها لم تُسقِط في جوفها سمّاً يكفي لإفناء قافلة كاملة .

انتظرتُ أن أستيقظ لأجدها جثّة ، ولكنها خذلتني . أمرتُ بإحضار صاحب العون لأستفهم عن مفعول السمّ ، ولكن الرجل تحدّث عن بطء المفعول وأوصاني بأن أتصبّر . بعد يوم وليلة أصيبت بالغثيان ، واشتكت من الدوار فهجعت للاستشفاء . ظننتُ أن ساعة الخلاص قد حلّت فبكيت بدموع حزن مجدوح بفرح . حزنتُ لأني لم أعرف كيف سأواجه الفراغ الذي ستتركه لي إذا فقدتها ، فرحتُ كالطفل لأني سأتحرّر أخيراً بعد أن تتحطّم الدمية . ولكن لا حزني دام طويلاً ولا فرحي . ذلك أن الخادم الذي أوقفته على رأسها

جاسوساً بدعوى القيام على أمرها أخبرني في الصباح بأنها عانت أوجاع الحمّى بالفعل في أول الأمر ، بل أنها سفحتْ عرقاً سخيّاً ، وقاتلتْ مردة أثناء الكابوس ، ولكنها عطستْ بعد منتصف الليل ثلاث مرات لتقذف من خياشيمها في كل مرّة مخاطاً مريباً كئيب اللون . وأضاف ذلك الأبله قائلاً لأنه يعتقد أن قذائف المخاط قد حرّرتها من الدّاء وجلبتْ لها العافية . أنصتُّ لثرثرته بذهول ، ثم وجدتُ نفسي أردّد لنفسي:" جنيّة ! جنيّة ! وربّ الأرباب جنيّة! ". ذهبتُ لأقف على الأمر بنفسي فحدجتني بنظرة قرأتُ فيها كل شيء . قرأتُ فيها أنها تعلم ، وأنّها تغفر أيضاً ، ولكنها تريد أن تستفهم . بل ما لبثتْ أن استفهمتْ فعلاً :

- لماذا ؟

تظاهرتُ بأني لم أفهم ، ولكنها حدّقتْ في عيني بإيماء مَنْ يعلم فاعترفتُ :

- لم أكن لأفعل لو لم أحب . أنتِ بكل شيء أعلم !
- هل قُدّر للمحبوب أن يموت بيد المحبّ ؟
- بلى !
- بايّ ناموس ؟
- بناموس الخوف .
- عن أيّ خوف تتحدّث ؟
- الخوف من البلبلة .

– الخوف من البلبلة ؟

– بل الخوف من البلبال !

– ما أقبح ما أسمع !

– لم أفهم .

– ألا تعلم أن الحبّ هو الكنز الوحيد الذي لن نخسر إذا دفعنا حتّى الفجيعة له ثمناً ؟

– أعلم أن الحبّ كنز . أعلم أن الحبّ أنفس الكنوز ، ولكن العزلة لابدّ أن تستميت للدفاع عن نفسها لأنّها أيضاً حبّ . حبّ من جنس فريد .

– هراء !

– هل أنتِ جنيّة ؟

– وهل أنتَ سليل إنس ؟

– بلى !

– كذبتَ !

– لا أفهم .

– أردتُ أن أقول أن في قلب كل إنس مخلوق من سلالة الجنّ، وفي بدن كل جنّ مخلوق من سلالة الإنس .

– من أنتِ ؟

– من وطنٍ لا وجود فيه لفرق بين الإنس والجنّ !

– أهو وطن الحنين ؟

- صدقتَ ! إنه **وطن الحنين** الذي جئتَ منه أيضاً قبل أن تذهب إلى المنفى !

- لن أبخل على مولاتي بثلاثة أرباع أيّامي لو أخبرتني عن حقيقة وطن الحنين الذي عرفته قبل أن أذهب إلى النسيان .

- لا أريد في الصفقة أيّامك ! أعطني في المقابل قلبك !

- في سبيل أن أعرف لن أبخل حتّى بقلبي !

- أعلم أنك تتلهّف لسماع نبأ الوطن لأنّك إلى **الأب** في شوق !

- هل أوتيت علماً بنبأ الأب أيضاً ؟

- لا شيء يُخفى على رسول .

- رسول ؟

- رسول قَدَرٍ أقبل على ديارك من وطن " **أساهو** " (*) . البعيد ليقاسمك المُلك والمخدع والتغنّي بأمجاد **الأب الأبدي** !

- مرحى ! مرحى !

- سأنجب لك من صلبي ذريّة تستمرّ فيها **سلالة الوطن الأوّل** إبقاءً للأثر ، ووفاءً قطعته على نفسي !

ثم رفعتْ عقيرتها بأغنية حنين أنستني نفسي ، وعندما عدتُ إلى الأرض سمعتها تكمل النبوءة :

(*) أساهو ، أو ساو : المنظومة النجمية (الشّعرى) .

- منذ اليوم ستصير ذرّيّتك ذرّيّة " **تارجا** " ، وسوف تتلجلج بها الألسن ، لأنها سلالة سرّ بين السلالات ، والاسم الحقّ سيبقى بين الأمم طلسماً ، كما قضى الناموس ! ولكنها سلالة شقيّة لأن قَدَرَها المنفى ، فاحترس !

٢. الظهيـــرة

في الزمن الأوّل شاطرتُ " **تين هنان** " (*) المخـدع لأنـي لم أرَ في الداهية سوى قرينة . وعندما نصّبـني الخلْـق كاهنـاً للمعبـد زارتـني الرّبة " **تانيت**" بين النوم واليقظة وطلبتْ منّي أن أدخلها الحرم لتكون إلى جـواري هنـاك أيضـاً ، ففعلـتُ . وبرغـم أن علّـة امتثـالي كـانت إكباراً لسرّ الأرباب وليس قناعــة بحقيقـة النسـاء إلاّ أنّـي سـرعان مـا اكتشفتُ الحكمة في النبــوءة . ذلـك أن صـوت الجنيّـة الـذي زعـزع نفوس الخلق يوماً استطاع هذه المرّة أن يزلزل نفوس الأرباب أيضــاً . فمنذ اليوم الأوّل الذي غنّتْ فيه داخل جدران معبدي القديم (الذي شيّدته يوماً على سفح الجبل ليكون لي بيتــاً) أغنيـة حنينهـا الأبـدي والدنيا لم تكفّ عن ترديد نشيدها السماويّ الـذي صـار أوّل ترتيـلٍ عرفته جدران معبد صحــراويّ . ويبـدو أن الابتهـال قـد نـال سـرور السماء فتعشّقتها أرباب الخفاء واختارتها لوزر النبوءة من دون الخلـق جميعاً إلى حــد أن أحلامهـا صـارت أنباءنـا الـتي لا تتـأخّر ولا يأتيهـا الباطل . ويروي بعض العقلاء أن علامة "تارجا" التي شيّعها حكمـاء

(*) تين هنان : جدّة الطوارق الأسطورية ، ملكة وكاهنة .

البنيان على أركان الجدران لتكون للواحة المجيدة شعاراً مثلّث الأضلاع ما هي ، في حقيقتها ، إلاّ وحي من الربّة الأولى " **تانيت** " أسرّتْ به لمعشوقتها وكاهنة معبدها " **تين هنان** " التي أوحتْ به بدورها إلى أرباب المعمار الأرضيّ . وقد حدّثني الأعوان فقالوا إن للعلامة المثلثة الأضلاع حكمة يمثّل ركنها الأول الرجولة ، ويمثّل ركنها الثاني الأنوثة ، أمّا ركنها الثالث فهو بُعْد مفقود أثار بين أهل الطلب جدلاً طويلاً نبّه فيه البعض على سلطانه وتحدّثوا عن قدرته برغم تستّره وتخفّيه عن الأنظار . في حين نوّه فريق آخر فقالوا أن البُعْد المفقود في التكوين ما هو إلاّ الحقيقة ، لأن الحقيقة ليست شيئاً آخر غير الإيماء . وكان أهل الفريق الثالث أكثر جسارة لأنهم قالوا بوضوح أن الركن الثالث في العلامة ما هو إلاّ سيماء الربّة " تانيت " نفسها ، لأن طبيعتها هي التي قضتْ بألا يستقيم جرم الأرض إذا لم تكن فيه سجيّتها طرفاً . والدليل يكمن في العناية الفائقة التي أولاها حكماء الواحة في تصميم العلامة ووسمها في كل جرم مجسّد إلى حدّ صارت فيه رمزاً للقبيلة الصحراوية كلّها . وقد نصبوها أوّل ما نصبوها فوق بيتي القديم الذي أبوا إلاّ أن يكون لديانة الحنين معبداً في الوقت الذي نادوا بي على الحَرَم كاهناً متخذين من لهفتي للأب حجّة لمبايعتهم بنفس الحماس الذي نادوا به " تين هنان " إلى جواري كاهنة متخذين من عشقها لأغاني الحنين حجّة أخرى قبل أن أكشف للخلق عن وصيّة الربّة الصحراوية يوم زارتني بين النوم واليقظة .

وقد أفزعني العبء يوم قرّروا أن يكبّلوني بالزعامة أيضاً إلى جانب الكهانة ، ولكنّهم تقاطروا عليّ وقالوا بصوت رجل واحد " اخترناك أن تكون على أمرنا وليّاً لأن ليس من حقّنا أن نثق في إنسان لم يتألّم ، كما اخترناك لتكون على معبدنا وصيّاً ليقيننا بأن دنيانا لن تستقيم إذا لم يتولّ أمرها صاحب رؤيا . إذْ لا خير في مولى لم يجمع في قلبه بين الألم والرؤيا " . أدهشني صفاء بصيرتهم فسألتهم: " من أنتم ؟ " فأجابوا بلغة الأحاجي القديمة : " نحن تلك الملّة التي يروق لها أن تتحدّث عن الظلّ وهي تعني الأصل ، وتومىء إلى الظل إذا تحدّثت عن الأصل ! " فأيقنتُ بأنهم زمرة من تلك الفئة القليلة التي تجوب الصحراء فيسمّيها البعض " **كيل إبا** " (*) ، ويطلق عليها آخرون اسم " أهل الخفاء " . ثم بدأ الأعوان يتطاولون في البنيان مستعينين بزحام الخَلْق الذي كان حتى ذلك الوقت قد التأم في الواحة . كان أوّل تدبير لجؤوا إليه قيامهم بدمج بنيان بيتي القديم الذي تحوّل معبداً بإيعاز من الكهنة ببنيان بيتي الجديد بحيث احتلّ الحَرَم في هيكل الكيان القلب ، وسمّوا المركز المتوّج بعلامة الربّة " بيتاً خافياً " إيماءً إلى التحامه ببنيان البيت الأحدث الذي أطلقوا عليه اسم " الباب العالي " لاعتلائه خاصرة المرتفع المطلّ على الواحة الناشئة .

(*) كيل إبا : أصحاب الروح ، الأرواح (لسان الطوارق) .

ولكن الدهاة لم يكتفوا ، بل تطلّعوا إلى السماء فرأوا فيها الضياء حسناً ، ففتّشوا في الأركان ، ونبشوا الأرض ، ولم يكلّوا حتى استخرجوا من بطنها طيناً بلون الضياء سمّوه جيراً ، ثم عملوا من فورهم على تلطيخ جدران المعبد ليبصموه بالبياض تيمّناً بسيماء النهار وإكباراً لهبة " رغ " الخالدة . بعدها أقبلوا عليّ وانتزعوني من خلوتي في مغارة الأسلاف وهم يترنّمون بتمائم الحنين الملحونة في الأنساق الغنائية المقدّسة . أخذوني من يدي وذهبوا بي إلى البنيان المكابر الذي زاده البياض جلالاً وعمقاً واستكباراً . هناك استغفلوني بأغاني الشجون فباغتوني . هاجمني من فريق الدهاة ثلاثة أشدّاء . طوّقني أحدهم بذراعيه ، وأحكم ثانيهم قناعاً جلدياً حول وجهي ، في حين اكتفى ثالثهم بتلاوة التميمة السريّة في أذني : " أنت سليل ربّ الأرباب رغ الذي تخلّى عنك يوماً ، لأنّه لا يتخلّى إلاّ عن المخلوق الذي أحبَّ ، فصرتَ ، منذ ذلك اليوم وإلى الأبد ، **أنوبي** ، ولولا المنفى لما نصّبناك اليوم على الوطن السفلي سلطاناً ، ولما جرؤنا على جعلك في الأرض لربّ الأرباب خليفةً " . فصار لي قناع " **أنوبي** " منذ الحفل الخفيّ تميمةً أخفي بها وجهي كلّما دخلتُ المعبد لأخلو إلى نفسي " ، أو لأتأمّل أمر الناس أو أمري ، أو لأستجدي الخفاء أن يلهمني النبوءة .

بعد انتهاء الدهاة من " بيت الخفاء " جاء دور بيت الدنيا الذي أطلقوا عليه إسم " البيت العالي " لأنهم تطلعوا إلى السماء مرّة

أخرى ، فعادوا من رحابها بالوصيّة الجديدة . أقبلوا عليّ في عقر داري هذه المرّة . وكبّلوني بالقيود ، ثم جرجروني هنا وهناك . توقفوا فظننتُ أن مراسم القصاص قد انتهت ، ولكنهم تناولوا سياطاً وجلدوني . جلدوني حتّى نزفتُ دماً . تركوني في الركن ورتّلوا التمائم الخفيّة التي لم أفهم منها شيئاً . وعندما فرغوا تولّوا أمري مرة أخرى . توّجوا رأسي بعمامة جلدية زرقاء اللون مطبوعة بمثلّث الربّة " **تانيت** " ، وسلّموني مقبض صولجان خشبي متوّج بعلامة الربّة أيضاً ، ولكن علامتها الأخرى التي يتقاطع فيها عمودان مستقيمان ، قبل أن يصرخوا في أذني بتعويذة ملحونة كأنهم يغنّون أغنيةً " أوجعناك بلا خطيئة لكي نذيقك مذاق الجور بلا ذنب ، توّجناك بالطربوش ذي اللون الأزرق لتعرف بأن سليل السماء من السماء جاء وإلى السماء يعود ومقامه في الأسافل مقام وقت ، ووضعنا في يمناك العصا لتحيي بها لا لتميت ، واعلم أنّنا لا ننصّبك على أحياءٍ ، ولكن على أمواتٍ يحسبون أنفسم أحياءً ، فاذهب فأنت منذ اليوم ظلّ يتولّى أمر تلك الظلال التي تثقل كاهل الأرض " . ثمّ سمعتهم يتغنّون بالحنين في لحن "**ساهو**" الذي يتحدّث عن منفى السلالة في الزمن الأوّل في إيقاع جماعي ما لبثتُ أن اهتديتُ فيه إلى صوت "تين هنان" الرخيم . هذه اللحون لعبت دوراً يوم قرّر حكماء المعمار أن يتولّوا الأمر ويضعوا في الواحة حجر الأساس في مسيرة البنيان . فقد روّجوا قبل ذلك لأحجية أخرى تجعل من المعمار لحناً قائماً في المكان كما اللحن

معمارٌ قائم في الزمان . بعدها أشبعوا مطلع الكيان جدلاً فتحدّثوا أوّلاً عن صلته بالخفاء . ثم عرّجوا في طريق عودتهم من رحلة المجهول على الأجرام البادية بدايةً بالسماء ونهايةً بقوس الأفق الذي يطوّق الصحراء . ثم تحدّثوا بلغتهم الغامضة عن لغز الكمال فقالوا أن الطلسم لن يكون إلاّ في الاستدارة ، لأن الألوهة كالدائرة لا بداية لها ولا نهاية . فقرّروا أن يتستّروا بأبنية تستعير أجرامها من لون الألوهة فبدؤوا بتشييد الأركان المدوّرة وهم يردّدون الأناشيد الشجنية التي ترى في كيان البنيان لحناً قائماً في المكان ، وترى في اللحن كياناً قائماً في الزمان . ولم يتوقّف هؤلاء العتاة إلاّ بعد أن صنعوا من صفوف البيوت المستديرة طوقاً يصنع حول الواحة سوراً مستديراً مدجّجاً بطوابير من علامات الربّة المثلثة الزوايا . تركوا الأبنية بلون الطين زمناً ، ولكن الدهاة ما لبثوا أن تحاججوا ورفعوا أصواتهم بالجدل قبل أن يستقرّوا على رأي حول هويّة اللون. قيل أنهم قالوا أن البياض هو لون الأخيار ، لأنه اللون الوحيد الذي يستعير قداسته من سيماء " رغ " الذي يراه الكلّ في لون النهار ، فأطلقوا يد الأعوان وحكماء البنيان فرشّوا جدران البيوت بأنصع أجناس جير استخرجوه من قيعان الوديان المجاورة . ولكن الخليقة وجدت حيلة تنفذ بها إلى الواحة برغم الحصون الرملية والجبلية فاختلطت في ربوع الأجناس المريبة من أركان الصحراء الأربع وتزاحم فيها خلق يرجعون بسلالاتهم إلى أهل الخفاء ، وملل أخرى ترجع بأصولها إلى أمم بعيدة

المنبت مجهولة الهوية . فالتأمت في ذلـك القـاع وتلاحمـت عـن طريـق النسـاء ، فقـرّر الدهـاة أن يقطعـوا شـوطاً أبعـد في سـبيل حلمهـم ، فأبتدؤوا بتشييع الحجارة وإقامة هياكل البنيان مستعينين بفريق سحرة قيل أنه أقبل من جهة الشرق وبَرَعَ في استنطاق الخفاء ومعاندة الحجر وفكّ طلاسم الأرض . فكانوا لهم سنداً في تشييد جـدران حـاكوا في هياكلها استدارة المعبد المدسوس في قلب القصر . وقد سمعـتُ هـؤلاء الأشقياء يغنّون أثناء تطاولهم في البنيان أغان أعـترف أنهـا أيقظـت في قلبي شجناً منسيّاً ربما لأنها تحدّثت عن لغز الخَلْق :

نكّنيض كيل كديوَن ،
نكّنيض كيل أغلاف
نكّنيض كيل تنيط
نكّنيض آيكنَنْ إكنارن
نكّنيض آيدخلكن آيلاّن . (*)

(*) نحن عشّاق الحجارة
نحن أهل الوصيّة
نحن أهل الدهاء
نحن صنّاع الكيان
نحن خلقنا العالم .

وقد راق لي أن أستعير اللحن من هؤلاء وأردده لنفسي في خلوتي برغم ما تخفيه الأشعار من استكبار ومن جسارة أقلقتني حتّى أنّي لم أستعجب يوم انتهى المطاف بفريق أشقياء الشرق هؤلاء من استخراج الأخلاط بمساعدة نيران الأفران ، فأبدعوا معدناً مميتاً سمّوه " **حديداً** " ، وهو ما رآه الأخيار عدواناً على سلطان الخفاء . ولكن نهم تلك الفئة إلى الاستكشاف لم يقف عند هذا الحدّ . فقد أخبرني الأعوان أنهم اجتمعوا إلى الدهاة قبل أن يخرجوا من المحفل بوصيّة أخرى ضربوا بها المعدن وسكّوه في جِرْم مستدير أيضاً أطلقوا عليه اسم " العملة " ، وطرحوها في الأيدي لتكون علامة للمبادلات التجارية بين أصحاب القوافل . فسادت زمناً ، ولكنهم ما لبثوا أن استبدلوها بهباء التبر الذي حرقوه أيضاً وسبكوه وسكّوه عملة أيضاً .

ولم يسبق لي أن أدركتُ حقيقة وصيّة العابر الذي وهبني يوماً بدل السلعة تبراً ، وحدّثني عن مزاياه الخارقة ، إلاّ بعد أن رأيتُ ما يفعله فريق الشرق بهذا المعدن . فقد أوصوا ، بعد أن تشاوروا مع الدهاة كعادتهم ، بالحث عنه والاستيلاء عليه بكلّ الحِيَل ، وهم أوّل من روّج للدعوة التي انتشرت بين الأمم كالوباء في زمن تالٍ والتي تقول أن التّبر هبة مقدّسة وليس معدناً أرضياً . ودلّلت على دعوتها بخصال المعدن المستعارة من رب الأرباب فقالت أنه ينتمي إلى سلالة " **رغ** " مظهراً وجوهراً : ينتمي بالمظهر في **لونه** ، وينتمي بالجوهر في **خلوده** . وكان من نتيجة هذا الزعم المنكر أن خلقاً كثيراً تعشّقه

تعشّقاً فاق تعشّقه لربّ الأرباب فتدافع لنيله ، وبرغم أن تكنيز التّبر قد أفلح في إنقاذ الواحة من المجاعات مراراً ، إلاّ أن هذا الهباء اللئيم قد جلب على الواحة كبائر لم تعرفها من قبل .

فعبادة المعدن أعْمَتْ الكثيرين فأخطؤوا لأوّل مرّة . أخطؤوا لأنهم وسوسوا وكادوا وسلبوا فخذلوا الخفاء . ولم يكن غريباً أن ينتهي الأمر بالسليل إلى حدّ يرفع فيه يده ليقتل أخاه السليل غيلة ليستولي على نصيب من معدن اللؤم . فكانت أوّل جريمة عرفتها الواحة قد ارتكبت بسلاح مصنوع من معدن الحديد ، وسبّبتها سبيكة مصنوعة من تبر ؛ فتذكرتُ وصيّة العابر القديم ، فأيقنتُ أن الوصيّة لم تكن وصيّة ، ولكنها نبوءة . والعابر لم يكن عابراً ، ولكنه كان في الرحلة رسولاً متنكّراً في أسمال أهل الخلاء .

٣. العصـــــر

كنتُ أهيم بين مغاور الأسلاف في السلسلة الجنوبية عندما أقبل عليّ مملوكي "هور" (*) مجاهراً بالبشارة .

نزلتُ خلفه الجبل فسمعتُ تراتيل الحنين قبل أن أدرك الحضيض . كان الدهاة يطوفون حول البنيان المقدُس ، يتقدّمهم أقدمهم وأكثرهم وقاراً ، يحمل بين كفيّه دمية ملفوفةً في إهاب مكسوّ بالوبر ، يلقي بها بين الحين والحين في الهواء ليتلقّفها من جديد، رافعاً عقيرته بالنشيد الموجع المكرّس لاسترضاء الخفاء ، فلا تلبث كوكبة الأشباح التي تهرع خلفه أن تتلقّف من شفتيه اللحن لتردّده خلفه في انسجام شجني لم تعرف القبائل لحلاوته مثيلاً إلاّ في أغاني أهل الخفاء . وقد حاولتُ أن أتبيّن العبارة في النشيد كما حاولت قبل ذلك اليوم مراراً ، ولكني أخفقتُ هذه المرّة أيضاً كما أخفقتُ قبلها مراراً مما ألهمني بأن هذه السلالة لا تتحدّث في لحونها لغة صحراوية ، بل ترطن بلغة أهل الخفاء . ويوم سألت أحد هؤلاء الدهاة عن سرّ البيان المبثوث في اللحون أجابني بسؤال غامض :

(*) هور (حور - حورس) : الحارس (لسان الطوارق ، وكذلك باللسان المصري القديم) .

" وهل تصير اللحون لحوناً إذا قيلت بلسان أرضي ؟ " ، فابتعلتُ فضولي و لم أسائل عن سرّ البيان بعد تلك المرّة أبداً . وهاهم الآن يترنحون ، ويتمايلون ، ويتغنّون بالرطانة المغلقة . تلك الرطانة التي يجب أن أعترف بأن لذّتها لا تجارى ، ولا تقاس بلسان ، إذا استقامت في اللسان .

اقتربتُ من المحفل مسافة أخرى فسمعتُ صراخ الوليد لأوّل مرّة . تناهى إلى سمعي واهياً كأنّه ينبعث من هاوية بئر ، ملحوناً كأنه يحاكي نشيد الدهاة ليسخر منهم . توقفتُ لأسأل نفسي : " أيعقل أن تكون تلك الدمية التي يتقاذفونها في الهواء هي سليلي ؟ " . زعزعني الحدس ، ولكني تمالكتُ نفسي، تقدمت خطوات فهرع نحوي أحدهم . أخذني جانباً وهو يردّد : " هذا لا يجوز ، هذا لا يجوز " ، وعندما حاولتُ أن أتحرّر لأدرك القوم ، اعترضني بعناد قائلاً: " لا يجب أن ندع للهوى سبيلاً يفسد ناموسنا ! " . رأى الإصرار في عيني فأومأ لماردٍ من مردة المحفل . أقبل المارد في رمشة عين ليصير للداهية معيناً . اعترض سبيلي أيضاً ، فقال الداهية معزياً : " نحن لا نحتفل بميلاد وليد . نحن نغنّي احتفاءً بميلاد النبوءة ! " . لم أفهم . لم أفهم أحجيته ولكني لم أستفهم . ويبدو أنه قرأ وسواسي فأوضح :

" اليوم تشهد الصحراء ميلاد الصحراء . اليوم تشهد الخليقة ميلاد السلالة التي شاء لها الخفاء أن تكون سرّاً بين الأمم ! " . تذكرتُ وصيّة " تين هنان " ، وتلصصتُ ببصري بين جرمي

الشبحين لأرى ما يفعله العتاة بذريتي ، فأبصرتُ سربهم يلج المعبد . أنصتُّ، فإذا بالنشيد المهيب يعلو ليبتلع نشيج الوليد .حاولتُ أن أقتفي أثرهم ، ولكن الداهيتين اعترضا سبيلي مرّة أخرى . قال أوّلهم: " ليس قبل أن يأذن الخفاء ! " . هممتُ بأن أسأل : " ولكن متى سيأذن الخفاء ؟ " ، فقرأ الداهية وسوسيّ مرّة أخرى لأني سمعته يقول بذات الغموض : " اليوم ليس ككل الأيام . اليوم تشهد الصحراء الميلاد . يجب أن تلهو وتصبر وتنتظر ! " . انتظرتُ طويلاً ، لأن مراسم الميلاد لم تنته إلا بعد منتصف الليل . بعدها جاءني كبيرهم الذي أخبرني بأن المجمع لم ينته من الصلاة إلاّ للتوّ . وعندما سألته عن الصلاة تجاهل سؤالي وانطلق يروي سيرة التطهير قائلاً أن روح الوليد اغتسلتْ من وميض نور " رغ " ، والجسد تحمّم بماء النبع ، لأن الروح سليلة الضوء ، ولكن الجسد سليل الماء والطين . ثم رتّل تميمةً بصوت ملحون قبل أن يضيف قائلاً أن المحفل قد ألصق بالسليل إسم " آرا " (*) بالاجماع تيمناً بما سيكون ، ونزولاً عند مشيئة النبوءة ، فاستفزّني الخيار . ولكنّي كتمتُ غيظي لأني قررتُ أن أطلق عليه اسماً آخر اختارته لي نبوءة أخرى هو " **هور** " تيمناً باسم مملوكي الوفي ، وتضليلاً للأثر على السعالي التي تتحين الفرص للانقضاض على أبناء الأكابر لاختطافهم واستبدالهم بأبناء من سلالات الجنّ وقبائل الخفاء . و لم أكن لأعلم يومها أني أحتال بذلك

(*) آرا (من الأضداد) : فيعني الابن والجدّ ، السليل وربّ السلالة . (لسان الطوارق)

دون أن أدري على نبوءة العرّافة التي أخبرتني يوماً بأن سلالة المماليك سوف تستولي على مُلكي وتنتحل لنفسها حقّ ذريتي فأعود من الرحلة خاوي اليدين . فما كان منّي إلاّ أن انتحلتُ لابني اسم عبدي علّ الاسم يكون له تميمة تحميه من اغتراب لم أعلم إلاّ فيما بعد أنه سيصير قَدَره . ولكن انتهاء الواحة من الاحتفاء بالميلاد أعقبه الاعتراف . فما كدتُ أهجع في إحدى الليالي حتى اقتحمتْ عليّ " تين هنان " خلوتي لتحدّثني عن السرّ . قالت أنها ليست عابرة ولم تنتم يوماً لملل الدخلاء ، ولكنها سليلة من ذوي القربى . ليست من ذوي القربى وحسب ، ولكنها تلك الأخت التي عرفتها يوماً وآوتني في حضنها كثيراً . سكتتْ فتفحصتها ملياً مكذّباً . وعندما هتفتُ : " سليلة الكاهن ؟ " ابتسمتْ بخبث وهزّتْ رأسها إيجاباً . استنكرتُ وعبرتُ عن دهشتي فأوضحتْ أنها تعمّدتْ أن تتنكّر في مسوح الأغراب تحقيقاً لوصيّته . صمتتْ ولم تشأ أن تستكمل الاعتراف فاستنطقتها لمعرفة فحوى الوصية . ولكنها لم تتكلم إلاّ بعد سكوت موجع دام طويلاً . قالت أخيراً :

- فعلتُ ذلك لأنقذ الذريّة !

استفهمتُ إيماءً ، فأوضحت :

- أنت تعلم أن الآباء وَهْم في وَهْم !

- ماذا ؟

- أنت أعلم الناس بزيف الأبوّة !

- زيف الأبوّة ؟

- لقد بدّدتَ العمر جرياً وراء الأب ولكنّك لم تجنِ سوى الريح !

- ولكنّكِ قلتِ لي يوماً أن أبي هو أبوكِ الكاهن الذي قتلته بيدي انتقاماً لأمي !

- أنت قتلتَ ظلّ الأب ، ولكنّك لم تقتل الأب .

- ماذا تقولين ؟

- أنت على حقّ إذْ أردت أن تقتله لأن الأب يجب أن يموت. لأن الأب دائماً ظلّ ، لأن الأب دائماً طيف ، لأن الأب الذي نعلمه ليس أباً . لأن الأب الحق شبح مجهول ، وإذا قرّر أن يتنازل عن خفائه ونزل إلينا ليبشرّنا بأبوّته فلابدّ أن نحتكم للقوّة لنقضي عليه بأيدينا لأنه ظلّ الأب وليس الأب . لأنه الأب المزوّر وليس الأب الشرعي !

- لقد حدّثني عابر سبيل عن أحجية كهذه يوماً ولكني لم أصدّقها .

- قتلتَ في ذلك اليوم ظلّ أبينا ، ولكن الأب أفلت مرّة أخرى . أمّا الأم فأمرها يختلف .

- حدّثيني عن الأم .

- إذا كان الأب باطلاً فالأم دائماً حقّ .

- مرحى !

– الأم التي لا نعرفها ليست أُمّاً ، والأب الذي نعرفه ليس أباً.

– كم تستهويك ، يا أمّة الصحراء ، الأحاجي !

– كُنْ طفلاً وسترى أن ما قالته سليلة الصحراء أبعد ما يكون عن الأحاجي ! عُدْ إلى المهد وليداً وستعرف أن الأم التي خرجتَ من بطنها ، وتنقلتَ بين يديها ، ونمتَ في حضنها ، هي وحدها الحقّ وكلّ ما عداها فلن يكون سوى باطلاً في باطل !

– من حظّك أنّي أستطيع أن أسترجع طفولتي . من حظّك أني كنتُ أكثر الأطفال إحساساً بأمّي ، وأكثر الأطفال فقداناً لأبي . ولولا فقداني للأب لما بدأت رحلة تيهي ، ولما أضعتُ في العبور طلسمي .

– لقد أتيتك متنكرة لأعينك على حماية الطلسم .

– هل هذه أحجية أخرى ؟

– مهلاً ! لقد جئتك لأنجب من صلبك سلالة تنتمي بنسبها إلى ملّة الأمّ لأنّك لم تأتِ بها من رحم امرأة الأغراب ، ولكن من دم امرأةٍ أخت . هذه هي التميمة الوحيدة التي تستطيع أن تصون نسل الصحراء من الزوال .

– ولكن ماذا عن الأب ؟

– ألم نتفق على أكذوبة الأب ؟ ما أنت في اللعبة سوى طيف زائل ، فاحترس لأنك لن تجد لسلالتك حصناً إلاّ في حضني !

– وهل تظنين أن هذا سوف يروي ظمئي ؟ هل تظنين أن

إنقاذ السلالة سيضمن لي فوزي بأبي ؟

– اترك لي ذريتي وفتّش عن أبيك ما شئت برغم يقيني بأنك من باطل جئت وإلى باطل تسير .

– ولكن ماذا سيهبني ناموس النسب إلى سلالة الأم ؟

– يكفي أنه سيصونه من سعلاة اسمها الضياع !

– الضياع سعلاة حقاً . الضياع غول الأمّة الصحراوية كلّها !

– لابدّ من الاحتكام إلى وتد المرأة لإبقاء لغز الحياة على قيد الحياة . لابدّ من شدّ الحبل إلى وتد المرأة لأن المرأة هي ربّة الدنيا . أمّا الرجل فلا يعوّل عليه لأنه ، في اللعبة ، كان دائماً حلماً غائباً . ولو لم يكن الرجل غبياً لما بدّدتَ دنياك بحثاً عن أبيك أيها القرين الشقيّ !

أدركتُ أنها سلبتني أقوى حججي لا لأني فقدتُ الأب ، أو قتلتُ الأب ، أو ظلّ الأب ، كما أسمته كاهنتي وكما أسماه عابر السبيل الخفيّ يوماً ، ولكن لأني فقدتُ دائماً السبيل إلى الأب إلى حدّ أنّي وجدتُ نفسي معزولاً ، مهجوراً ، تائهاً كلّما ظننتُ أنّي أمسكتُ بتلابيب حقيقتي حتّى كدتُ أن أرتضي لنفسي لعنة " أنوبي" لي مصيراً ، فوجدتُ نفسي أتمتم دون أن أدري :

– أنوبي قَدَر فاجع . فَلْتَنْسَب ملّتي إلى ناموس الأم ، أو إلى أي ناموس ، إذا كان ذلك سينقذها من مصير " **أنوبي** " !

ساعتها سمعتُ صوتَ الكاهنة يتكلّم بلسان النبوءة :

- منذ اليوم الراية بيد **ابن الأخت** ، وليس بيد ابن الأب !

ولكن الكاهنة ، بنبوءتها ، لم تضع صولجان السلطان بيد سليل الأخت وحسب ولكنها وضعت حجر الأساس للناموس الذي أجاز الاقتران بالأخت أيضاً .

٤. الغــروب

بُعيد غروب أحد الأيام ساقني الدهاة إلى المحفل وقال لي أكابرهم أن الأوان قد حان لكي أتولّى الأمر . حدّثوني في البدء عن الناموس ، فأخبروا أنه وصيّة من شقّين : شقّ لتيسير شأن الدنيا ، وشقّ للإبقاء على العلاقة مع الخفاء . إلى الشقّ الأخير تنتمي تلك الرقع الغامضة التي تتعلّق بتقسيم الملّة تقسيماً صارماً . اقترب منّي أكثرهم وقاراً وطرح في وجهي رقعة موسّمة برموز خفيّة قبل أن يقول أن القبيلة ستنقسم بمشيئة الخفاء إلى فرق حقيقية ثلاثة تكون لها سلالة " **رغ** " رأساً ، وتصير فيها ذريّة الربّة " **يت** " عموداً وجسداً، وتتولّى ملّة " **ست** " فيها مقاليد الحيلة . ثم تطلّع في طلاسم الرقعة مليّاً قبل أن يضيف قائلاً أن حكمة الخفاء قضت أن تتولّى الفئة الأولى مقاليد الحكم فيتوارثه الأبناء الذين تجري في عروقهم دماء سلالة الأم ، شريطة ألاّ يملكوا ، وألاّ يضعوا أيديهم على حطام الدنيا، تيمّناً بأصلهم الإلهي الذي لا يملك شيئاً ، لأنه مالك كل شيء.

ثم تكلّم عن رسالة الفئة الثانية فقال إنهم فرسان الربّة الأولى وأبناء الأم التي أنجبت كل شيء الذين كُتب عليهم أن يملكوا ، بل

وينصّبوا الملوك من سلالات " رغ " ، على ألاّ يحكموا بأنفسهم أبداً.

أمّا فئة الحيلة فرسالتها الدهاء واستنطاق ما استظهر وما استبطن طلباً للنفع لا معاندة للطلسم .

ثمّ رأيتُ داهية الدهاة يسكت . سكت زمناً طويلاً فابتلع السكون الدنيا . وعندما عاد من رحلته المجهولة تكلّم بالفصل الأخير من النبوءة : " سيحدث الخلل ، وسوف تهلك القبيلة كلّها يوم يُنتهك الناموس ، فيطمع سليل " رغ " في **امتلاك** حطام ، أو يشتهي سليل " **يت** " في الاستيلاء على **المُلْك** ، أو تسوّل النفس الأمارة بالسوء إلى سليل "**ست** " بالمضي أبعد مما ينبغي في سبيل أن **يعرف**". سكتْ فساد السكون الدنيا مرّة أخرى . ثم أنهى رسالته قائلاً " هذه خاتمة الوصيّة ! " . تقدّم منّي . وضع بين يدي الرقع الموسومة بالطلاسم . انحنى أمامي بإكبار زلزلني . همهم بصوت جليل : " أنت ، يا مولاي ، منذ اليوم على الرقع مولى . أنت ، يا مولاي ، منذ اليوم ، على الصحراء خليفة " . ثم أومأ لطابور الدهاة فتقدّموا مني واحداً واحداً .

كانوا ينحنون أمام جسدي الزائل ويرددون الوصيّة كأنهم يرتّلون ابتهالاً مرفوعاً لدنيا الخفاء : " أنت ، يا مولانا ، منذ اليوم على الرقع مولى . أنت يا مولانا ، منذ اليوم ، على الصحراء خليفة " . ولكنّه استطرد منوّهاً بضرورة إكبار الأبعاد الثلاثة قائلاً أن الحقيقة التي لم تقم على البُعْد الواحد ليس لها إلاّ أن تقوم على أبعاد ثلاثة .

ولكنه استدرك ليحذّر من البُعْد الرابع مؤكّداً أن الحقيقة الخافية عكس الحقيقة البادية التي تنهار إذا فُقِد الركن الرابع . بعدها سمعته يرفع عقيرته بنشيد حنين شجيّ رقص للذّته قلبي ، واستفزّ الدمع من مقلتي حتى أني بكيتُ دون أن أدري . تقدّم منّي دون أن يكفّ عن الغناء . همس في أذني بلغة الشّعر : " الإنسان ، يا مولانا، وصيّة ، والفراق حقّ ، فلا تنسَ ! " . ثمّ .. ثمّ انسحب . لم ينسحب ، ولكنّه تبدّد كما يتبدّد السراب أمام من يحاول أن يدركه. تبدّد فتبدّدت خلفه صفوف الدهاة ، فلم أرهم بعد ذلك اليوم إلى الأبد .

تخلّى عنّي الدهاة فأحسستُ بالفراغ وتنزّل في قلبي الخواء . عُدْتُ وحيداً ، مهجوراً ، معزولاً برغم زحام الخلق في الواحة وبرغم وجود القرينة إلى جواري . أدركتُ في ذلك اليوم أن ثمَّ مخلوقات لا نعرف حقيقتها إلاّ عندما نفقدها . أدركتُ أيضاً أن ثمّ مخلوقات لا المرأة تستطيع أن تعوّضهم حتى لو كانت في حكمتها كاهنة ، ولا جماهير الخلق تستطيع أن تعزّي في غيابهم حتى لو كانت هذه الجماهير أخيار الخلق . أدركتُ أن الوحشة وحش لا يقدر على ترويضه من اخترناه لهذا المصير ، ولكنّها سرّ يبدّده أولئك الذين لم نسترضهم ، ولم نتقرّب إليهم ولم نشعر بوجودهم . وكان عليّ أن أدرك مرّة أخرى أنّي لستُ في نهاية المطاف سوى " **أنوبي** " ، وقدر " أنوبي " في هذه الصحراء هو العزلة .

ولكنّي تذكرت وصيّة صاحب الوقار الذي دشّنني علـى الرّقـع مولى ، وتوّجني على الصحراء خليفـةً ، فكـان لزامـاً علـيّ أن أواجـه قدري وأتولّى الأمر بنفسي هذه المرّة . والحقّ أن دافعـي لتولّـي الأمـر لم يكن الإحساس بصنف من صنوف الواجب ، ولكن طرداً للوحشة وقتلاً للسأم ، فلماذا لا أتسلّى ؟

نظرتُ حولي ، ونظرتُ في نفسي ، فرأيـتُ أن اللعبـة تشـترط وجود ناموس لها فقررتُ أن أبدأ باتخاذ محفلٍ أحيط به مجلسي يعزيـني في محفل الدهاة المفقود . وكان عليّ أن أفتّش في ثنايا الرقـع بحثاً عـن سندٍ في الوصايا التي دشّنتني عليهـــا زمـرة الدهـاة مـولى ، فـاهتديتُ بفضلها إلى الثالوث . ذهبتُ إلى مغـارة الأسـلاف في السـفح الجبلـي الجنوبـي ، واعـتزلتُ هنـاك زمنـاً قبـل أن أعـود إلى واحـتي بالرؤيـا . أجلستُ قرينتي إلى جواري وأمرتُ الأعوان أن يأتوني بأكابر القبائل. قلت لهم أن الناموس قد تغنّى في وصايـاه بالثـالوث فرأيـتُ أن أختـار من كلّ ملّة رجلاً لا يبخل عليّ بالرأي إذا سألته الشـورى ، ويكـون لي في دنياي أنيساً إذا ضيّقتْ عليّ الوحشة الخناق ، فهمهموا علامـة استحسان . أحطتُ بهم مجلسي وسألتهم من فوري :

- فليصدقني أرباب القوم القول : أنُلام إذا لهونا ؟

فهبّوا ليحتجّوا بصوت رجل واحد :

- كلاّ ، يا مولانا ، ثم كلاّ !

- مَنْ دلّني على حيلة واحدة لدفع الهمّ عن دنيانا سوى اللّهو

أغدقت عليه من نعمتي !

فما كان من الجمع إلاّ أن تهاتف بالصوت العالي :

- دفن دهاة قبائلنا رؤوسهم في بطون النبوءات حتّى أُصيبت عيونهم بالعماء فلم يجدوا في دنيانا حقيقة غير اللّهو !

- ولكنكم ، يا أرباب القوم ، أعلم الخلق بالوصيّة التي تقول بأن الناموس في دنيانا يحكم كل شيء حتّى اللهو !

- بلى يا مولانا : اللّهو أيضاً محكوم بمشيئة الناموس !

- ها قد مضى الزمان بأرباب الناموس فتسكّع في واحتنا الخواء . ولكن حقيقتهم ليست في أجرامهم التي تبدّدت ، ولكنّها في وصاياهم التي تركوها بين أيدينا .

هنا تجاسر صوت بسؤال شممتُ فيه رائحة لؤم دفين :

- أيعقل ، يا مولاي ، أن يكون الدهاة قد حثّوا على اللّهو ؟!

ولكن قرينه بالجوار كفاني شرّ محاجحته عندما قال :

- سوف نهلك ، يا مولاي ، من السأم إذا لم نحتكم إلى اللّهو. أقصر الصغار عمراً أعجز الصغار عن اللّهو . لقد ولدتْ معزتي جدياً كئيباً غريب الأطوار ، لا يخالط الجداء ، ولا يستجيب لمداعبات أمّه ، ويقضي النهار محدّقاً في الفراغ ، ويسهر الليل يتفحّص النجوم . رأيتُ في مقلتيه حزناً لم أره إلاّ في عيون العابرين والمعتزلين وأهل الدهاء . وكنت على يقين أن في جرمِ الجدي يسكن مخلوق من سلالة الجان . ويبدو أن الحدس لم يكذّبني ، لأن الحزن في

عيني هذا الشقيّ قد تضاعف إلى حدّ أنذر بالشؤم . فهل تدرون ماذا حدث بعدها ؟ لقد رأيته في أحد الأيام يعتلي صخرة على سفح الجبل ويرمي بنفسه إلى الهاوية . لقد هلك يا مولاي ، كما يهلك كل مخلوق فَقَدَ القدرة على اللّهو !

سرتْ في المحفل همهمة . صاح أحدهم :

– جديك هذا إنسان ، وليس بحيوان ولا بجان !

أومأت لهم طلباً للهدوء فسكتوا . تفحصتُ رقعة في حجري قبل أن أقول :

– الدهاة حثّوا على الثالوث . ولتثبيت أقدام البنيان المقدّس لا بدّ من أركان ثلاثة .

استعصى إيماء الاستعارة على الجمع فساد وجوم . حاولت أن أوضح التورية :

– مولانا " رغ " في الأعالي ، وعلى الأرض الخليقة ، وفي نفوس الناس الحكمة !

ولكنّي أكملت :

– ولكن الركن الرابع في البنيان خطيئة ، فاحترسوا !

رددت ورائي أصوات :

– الركن الرابع خطيئة !

– في الأرحام تتململ البذار ، وتتنامى الأجنّة ، منتظرة ساعة الميلاد التي لا يدري لها أحد ميعاداً . ولكنّي فكّرت أن الانتظار

سوف يميتنا بداء الوحشة ، فرأيتُ أن أختار من بين كل قبيلة من قبائلكم رجلاً يأخذ مكاناً إلى جواري في المجلس ، ويكون نواة لقبائل الوعد ، وذلك إلى حين تترعرع في الخفاء البذار ، وتولد من الأرحام الأجنّة !

ردّدوا بانتشاء المغنين الممسوسين بحنين الوجد :

- إلى حين تترعرع في الخفاء البذار ، وتولد من الأرحام الأجنّة !

- ولكن إيّاكم أن تسيروا في السبيل بعيداً فتنسوا أن الأمر كلّه لهو في لهو !

- الأمر لهو في لهو !

- لا أريدكم أن تغفلوا عن نفوسكم الأمّارة بالسّوء فترتكبوا خطيئة بانتحال دور السر الذي ينتظر في الأرحام ، ولكن اعملوا واعلموا أنّكم تتسلّون لتنسوا !

ساعتها اقترب منّي أحد هؤلاء الأكابر ، وهمس في أذني كأنه يريد أن يستودعني سرّاً :

- ولكن ما الذي يريدنا مولاي أن نتسلّى لكي ننساه ؟!

أغاظني الشقيّ بسؤاله ، ولكني وجدت لذّة بالرد عليه بالقول:

- لأنكم ستقتلون أنفسكم إن لم تنسوا أنّكم أحياء ! لأنكم ستلقون مصير الجدي الذي تحدّث عنه صاحبكم إن لم تتسلّوا !

ساد الوجوم مرّة أخرى فوجدتُ الفرصة كي أتغنّى بالنداء :

- رقعة الخفاء ، يا قوم تارجا ، تقول أن سلالة " رغ " ستكون للقبيلة رأساً ، فهلا إخترتم لي من بينكم سليلاً يكون لـ "رغ" على الأرض خليفة ؟!

عمّ السكون . تبادل القوم النظرات خلسة . تناطحوا ، تهامسوا ، وخرجوا من الشورى بالنبوءة :

- وهل نجرؤ ، يا مولانا ، على اختيار مخلوق يكون لـ "رغ" على الأرض خليفةً في حين يتصدّر مجلسنا السليل الذي اختاره الخفاء ليكون لـ " رغ " خليفة حقّ بدل خليفة الباطل ؟!

- لا أملك إلاّ أن أعبّر لكم عن امتناني على حسن الظنّ ، ولكنّي أخشى أن يكون في بقائي بينكم خلط للرقع وإخلال بناموس اللّعب !

حدجتني ربّة البيت وكاهنة المعبد بنظرة استنكار . ويبدو أن أحد الذين جلسوا بالجوار قد اقتنص النظرة فتولّى الأمر :

- ألا يخشى مولانا أن يستفزّ الخفاء بزهده في خلافةٍ كانت في رقبته منذ البدء قَدَرًا ؟

- أيضير الخلافة أن تكون طرفاً في لعب أمّة تبحث عن سبيل لمغالبة الوحشية ؟

- سمعتُ ، يا مولاي ، داهية مرّة يتوعّد بالويل الأمم التي تجسر على خلط الجدّ بالهزل !

- إذا أخبرتني بحقيقة الجدّ وهبتك نصف مملكتي هذه . وإذا

أخبرتني بحقيقة الهزل وهبتك نصف مملكتي الباقي !

ساعتها تدخّلت الربّة التي تجلس إلى جواري لأول مرّة :

- نحن لا نملك أقدارنا ، ولكن أقدارنا هي التي تملكنا . من حقّنا أن نراهن على ما ملكتْ أيدينا ، ولكن ليس من حقّنا أن نراهن على الأيادي التي تملكنا . من حقّ مولانا أن يرمي إلى ساحة اللّعب بما ملكتْ يداه ، ولكن ليس من حقّ مولانا أن يرمي إلى ساحة اللّعب باليد التي ملكته !

- عن أيّ يد تتحدّث مولاتنا ؟

- اليد التي كانت في رقبتك قَدَراً . اليد التي رمتك إلى ساحة هذه الواحة ووضعتها بين يديك . اليد التي نصّبتك على رأس " تارجا " وليّاً !

- ولكن ماذا بوسع صاحب المُلْك أن يفعل إذا نهشت صدره الوحشة ووسوس في قلبه العبور ؟

ولكنها تجاهلت السؤال وألقت في المحفل بنبوءة أخرى :

- المُلْك ، يا مولانا ، هو الذي يملكنا ، ولكنّنا لا نملك المُلْك!

- أليس من حقّ المالك أن يتحرّر من المُلْك ؟

- كلاّ !

- هل الملكيّة ، في ناموس مولاتنا ، لعنة ؟

- الملكيّة في رقبة المالك قَدَر وليست لعنة . فهل تدري من أنت ؟

- أنا ؟ أنا ، يا مولاتي ، عابر !

- كلاّ ! كنت ، يا مولانا ، عابراً قبل أن تكبلك الأقدار بالواحة . كنت ، يا مولانا ، عابراً قبل أن يغلّك الخفاء بالملكيّة . أنت منذ اليوم لا اسمك لك سوى الملكيّة ، ولا وطن لك سوى الملكيّة ، ولا إله لك سوى الملكيّة . أنت الملكيّة والملكية هي أنت ، فكيف تستطيع أن تتنصّل من ملكية وضعها الخفاء بين يديك وصيّة دون أن تتنصّل من حقيقتك ؟ كيف تتنازل عن الوصيّة دون أن تتنازل عن نفسك ؟

- بأي ترياق ، إذن ، يتداوى صاحب الوحشة ؟ بأيّ ترياق ، إذن ، يستشفي العليل بالحنين ؟

لم أسمع جوابها . لم أسمع جوابها لأن الوجد فاض في القلب ، والحنين استولى على الروح ، والنغم المجهول في أذني اشتدّ ، فخنقتني عبْرة ، ووجدتُ بدني يتمايل يمنةً ويسرةً مستجيباً للإيقاع ، وما لبث لساني أن لجلج بالأغنية . أغنية شجن سرت في العضلة كما تسري النبوءة في القلب . غنّيتُ فغنّى الجمع ورائي . ولكن الكاهنة رفضت النداء و لم تغنِّ . تطلعتْ إليّ بفضول خفيّ . وعندما توقفتُ لألتقط أنفاسي مالت على رأسي لتقول :

- لا تركب رأسك !

لم أفهم الإيماء فعدتُ إلى الغناء . غنيتُ فعاود الجمع يغنّي ورائي . بكيتُ في غنائي فبكى جمع الأكابر ورائي . تحوّلت سيماء

الفضول في عيني كاهنتي وعيداً . انتهرتني بصرامة لم أعهدها يوماً :
- كُفَّ !

ولكن فيض القلب كان أقوى . سلطان الحنين كان أقوى . لأني تعلّمتُ من كفاحي أن الإنسان في ظاهره ظلّ ، ولكنه في باطنه حنين . حنين لا يستيقظ إلاّ عندما يبعث به الخفاء رسولاً لينبئنا عن حقيقتنا . ولكنّنا كثيراً ما نفقد حقيقتنا لأننا لا نحسن الاستماع إلى صوت حنيننا ، لا نحسن التغنّي بنشيد حنيننا . لأن حنيننا أخيراً ما هو إلاّ نحن التي أضعنا السبيل إليها ولا نجد الحيلة لاستردادها . فلماذا لا يكون الغناء حيلتنا ؟ لماذا لا تصير اللحون نبوءتنا ؟

ولكن النبوءة التي وسوس بها الخفاء في القلب اختلفت عن النبوءة التي لوّحت بها الكاهنة في وجهي عندما استفزّتها أغنيتي فرمت بقفّاز التحدّي في وجهي :
- أنت ترتكب خطيئة !

٥. العتمة

ارتكبتُ خطيئة حقّاً لأني اتخذتُ من دون امرأتي دمية أخرى. لم أعلم ، برغم تجريبي ، أن المرأة تستطيع أن تغفر لرجلها أقبح الخطايا وأكبر الكبائر ما لم يتخذ من دونها دمية أخرى . لأن ضرّة المرأة الحقيقية ليست المرأة ، ولكنها الدمية . لأن المرأة تعلم أنّها ليست في حقيقتها سوى تلك الدمية التي تتزعزع وتتعرض لأفدح الأخطار إذا أشرك بها رجلها دمية أخرى . ولكن لهفتي إلى اللّهو أنستني أمري فلم أدرك سرّ الدمية ، لسوء الحظّ ، إلاّ بعد مرور زمانٍ حفل بالأحداث الجسام . فقد جاهرتُ بنواياي في سورة جذبي فنطقت بالبيان دون أن أدري . انتحل ، بالبيان ، أكابر قومٍ دور سلالة " رغ " الذين عليهم أن يمتلكوا زمام الأمر شريطة أن يترفّعوا عن حطام الدنيا كما قضى الناموس . ولم أنسَ في بياني أن أذيّل الوصيّة بالتّنبيه إلى السجيّة الوقتيّة للتنصيب عملاً بناموس اللّهو أوّلاً ، وتذكيراً بدور الأجنّة التي تتململ في الأرحام ، مرتكباً بذلك خطيّة أخرى كان على الأيام أن تخبرني بحقيقتها القائلة بأن السلطان هو الكنز الوحيد الذي لا يوهب على سبيل المزاح أو اللّهو ، لأنه سرّ لا بدّ أن تتمرّد فيه السليقة على العهد ، فيتحوّل حقيقة حتّى لو كان في

الأصل أكذوبة .

ثم علا صوتي ، في حمّى حنيني ، فنطقت بالبيان الثاني الذي انتحل فيه أكابر الأغيار دور ملّة الربّة " يت " الذين وضعت كلمة الناموس على عاتقهم وزر الامتلاك ، وكان عليهم أن ينصّبوا أبناء "رغ " ليتربّعوا على العروش دون أن يطمعوا في أن يمتلكوا . ثم طاف بي الحنين ، وناحت في قلبي اللحون ، فنطقت بالكلمة الأخيرة في البيان ، فانتحل أهل الحديد (الذين تسلّلوا إلى الواحة يوماً من جهة الشرق) دور سلالة " ست " التي أحسنت ضرب المعادن ، ومزج الأخلاط ، وتقويم الصلب والحديد ، فاعتورني وهن من جنس يعرفه كل من عرف أوجاع الحنين ، فاستلقيتُ وسحبت فوق رأسي اللحاف ظاناً أني بلَّغْتُ . لا أدري كم من الزمان استغرق غيابي ، ولكني عندما أفقتُ وجدت عبدي " هور" يقف فوق رأسي. قال أن ببابي يقف رجلان يتهاتران ويتنابزان بالألقاب ويطلبان الدخول عليّ . أذنتُ لهما فإذا بي أمام مخلوقين مقنّعين بلفافتين جلديتين معتمتين . في عينيهما صرامة ومعاندة وبقيّة من غضب فيبدوان شبيهين كتوأمين لولا تمايزهما في القامة . تكلّم أطولهما قامة فقال أنه استودع قرينه قدراً من مسحوق التّبر على أن يستعيده منه بعد عودته من رحلة له إلى بلاد الأدغال ، ولكن الداهية غَدَر به لأنّه عجن الهباء في سبيكة لئيمة على صورته وأبى أن يعطيه الوديعة . وقد احتكم إليّ لأحكم بينهما بالعدل بدل أن يحكم بينهما

حدّ السيف . سكتَ فتطلّعتُ إلى قرينه الأقصر قامة وسألته بابتسار :

- أتنكر ؟

فهزّ رأسه علامة النفي . سألته :

- أتعترف بأن التبر من حقّ قرينك ؟

أجاب بلا تردد :

- بلى !

- فلماذا أنكرت عليه حقّه ؟

- لم أنكره الحقّ في التّبر ، ولكني أنكرته الحقّ في ما يسمّيه سبيكة لئيمة !

- ماذا تريد أن تقول ؟

- أردت أن أقول أنيّ لا أنكر أنّي مدين له بحفنة التّبر ، ولكني لست مديناً له بسبيكة استودعتها روحي يوم أبدعتها يداي .

- إذا كنت لا تريد أن تعيد له سبيكة استودعتها روحك ، فلماذا لا تعيد له تبراً استودعه بين يديك ؟

- لقد استنسأته يا مولاي في نيل التّبر ، ولكنه أراد أن يستولي على السبيكة بديلاً عن التّبر !

- هل استأذنته يوم سككتَ من تبره سبيكتك ؟

- كيف لي يا مولاي أن أستأذنه إذا كان قد هاجر بعيداً ؟

- ألم يخبرك بميعاد عودته ؟

- كلاّ !

- ولكن بأيّ حقّ تنتهك وديعة إنسان وضعها أمانة في عنقك؟

- لأني ، يا مولاي ، نظرتُ إلى التّبر فوجدته حسناً ، ونظرتُ في قلبي فوجدته عاشقاً ! .

- الحقّ أني لم أفهم ...

ولكن العاشق روى سيرة عشقه وهو يحدّق في الفراغ :

- استجبتُ للوسوسة ، واستأنستُ بإيماء التّبر ورأيت في بريقه وسوسة ، فرميت بالهباء في الأتون في ليلة أوجعتني فيها حمّى مجهولة ، ولم أكتشف أني وجدت لدائي الترياق إلاّ بعد أن عجنت المسحوق وركّبته في الشِّعْر . بلى ، بلى . لقد صنعت من التراب شِعْراً يا مولاي !

- هل لك بأن تريني شِعْرك هذا ؟

مضى يحدّق في باب يؤدّي إلى الفراغ . في عينيه أيضاً فراغ . كلاّ . في عينيه تولّد قلق مريب . وسوسة أخرى ؟ إيماء ؟ عشق ؟ قلق خفي ؟ لا أدري . ولكن اليقين أن يده ارتجفت عندما قهر تردّده أخيراً وقرّر أن يستخرج الكنز من عبّه .أخرج لفافة جلد من كمّ جلبابه . تشبّث بها بين يديه. احتواها بكلتا يديه زمناً قبل أن يتنازل ويمدّ بها إليّ . تناولت اللفافة . استخرجت ما أسماه قرينه المارد بـ " السبيكة اللئيمة " . كانت مخلوقاً مجسّداً في كيان صقيل ، كانت مخلوقاً لا شبيه لسيمائه بين المخلوقات ، غامضاً ، ثرياً بجمال خفيّ ،

مكابراً ، لا ينطق المعدن لا بجماله ولا بكبريائه . ولكن كلا المثالين يتكلّمان من وراء الصلب كما يتكلّم الكهّان من وراء الحجاب ، يسريان في بدن المعدن سرياناً ليثبتا وجوداً أنكره عليهما الجِرْم ، فتخفيّا ، وتواريا ، وغابا ، ليزدادا ، بغيابهما ، حضوراً ، ووجوداً ، وحياةً ، وخلوداً . فهل هذا نصب معدن أم هيكل حرم ؟ هل التحفة قضيب معدن، أم جرم ربّة ؟

سألت العاشق مأخوذاً :

- هل هو معبود ؟

ولكن العاشّق فرّ ببصره إلى البُعْد مرّة أخرى ، فأعدتُ سؤالي فأجابني بغموض :

- السبيكة هي أنا يا مولاي !

- ماذا ؟

- بين يدي مولاي يرقد قلبي !

عدتُ أتأمّل الإبداع . قلّبتها بين يدي فوجدتها ملساء إلى حدّ موجع . ولكن وسواساً ما لبث أن استيقظ في صدري . وسواس أيقظه الخفاء الذي يسري في جرم التحفة الذهبية فخيّل لي أني رأيته من قبل برغم يقيني أن القطعة تقع في يدي لأوّل مرّة ؟ فأين ؟ ومتى؟ حاولتُ أن أعتصر اليقين من ذاكرتي كما فعلت يوماً عندما ألقى بي المجهول إلى مشارف " تارجا " ليذيقني طعم داء اسمه النسيان . ولكن النبوءة هذه المرّة استعصت برغم لذّة التيه وراء الجمال الذي يسري

في الجـرم الصقيـل سـريان الـروح في الجسـد ، وبرغـم متعـة مطـاردة الكبرياء الذي لا يتخفّى إلاّ ليومئ ، ولا يتوارى إلاّ ليثبت حضوره ، فأيّ روح تستبطن هـذا المعـدن ؟ وأي ربّ يتكمّـن وراء هـذا الجـرم المكابر ؟

كنت ما زلت أقلّب الهيكل بين يدي عندما قلت :

- من حقّك أن تأبى التخلّي عن السبيكة ، ومن حقّ صاحبك أن ينال وديعته من التّبر .

- رجوته ، يا مولاي ، أن يمهلني .

التفتُّ إلى قرينه وسألت:

- هل تستمهله ؟

أجاب بلا تردّد :

- كلاّ !

تطلعتُ إلى العاشق وقلت بأسى :

- لا حيلة لك ! عليك أن تهبه المعبود مقابل تبره !

- كلاّ !

نظرت إليه بأسى . سألته :

- أتدري أن مَنْ عبث بما استودع كمن تأخّر عن سداد دين؟

- أدري !

- أتدري قصاص من تأخّر عن سداد الدين في شرع الواحة ؟

- أدري !

– أتؤثر أن تسلّم رقبتك للعبوديّة على أن تسلّم للرجل سبيكة المعدن ؟

– الجرم ليس سبيكة معدن يا مولاي !

– لا أنكر عليك الإتقان ، ولكن ما تسمّيه جرماً في نظرالشرع سبيكة !

– لقد أخبرتُ مولاي : الجرم هو أنا !

– وماذا يفيدك أن تحتفظ بما صنعت يداك إذا كنت ستصير بقصاص الشرع بنفسك رهينة ؟

– سأرهن بالقصاص ، بدني ، ولكن هيهات أن ينال الرهن ما أخفيته في الجرم الذي يرقد بين يديّ مولاي !

فكّرتُ قليلاً قبل أن أسأله :

– هل تبوح لي بسرّ المعبود إذا عفوتُ عنك ؟

ولكن العاشق نظر بعيداً و لم يجب .

أعدتُ إليه المعبود ، وقضيتُ أن يصير لقرينه عبداً لأمدٍ يستمرّ أعواماً ، فخرجا ليتهاترا ويتنابزا بالألقاب كما أخبرني عبدي "هور" فيما بعد . حاولت أن أنسى الخصمين الشقيين وأطرد من رأسي البلبلة كلّها ، ولكن إلهام المعبود الغامض سرى في قلبي كما سرى جمال الربّة المجهول في قضيب المعدن ، فجاهدت للوقوف على سرّه . هجعتُ كثيراً ، وسرحتُ كثيراً ، وحاولت أن أحكم بالعدل في خصومات كثيرة ، ولكن سرّ المعبود ظلّ طلسماً برغم أنه لم يهجر

قلبي أبداً . وفي أحد الأيام حاورت القرينه التي تجلس في المخدع إلى جواري ، ورأيتها تنظر إلى الخلاء من شبّاك القصر نظرة ألهمتني وأحيت في قلبي إيماءً ضائعاً . بلبلني الإحساس فخرجت إلى كهوف الأسلاف مع بعض الأعوان . هناك ، في معقل الوصايا الأولى ، انبثق الوحي ، ونزّت في صدري النبوءة التي انتظرتها وأخفقتُ في نيلها زمناً طويلاً . اكتشفتُ في غمضة ، أن المعبود الذي أبدعه الشقيّ ليس سوى معبودةً ، والمعبودة ، في حقيقتها ، لم تكن سوى الكاهنة ! بلى ، بلى . الربّة المسبوكة في قضيب الذهب ليست سوى قرينتي في دنياي ، وحميمتي في المخدع ، وأختي في الدّم ، وكاهنتي في المعبد. فكيف لم أكتشف الشبه كل هذا الزمان ؟

أمرتُ الأعوان أن يأتوني بالعاشق الشقيّ في الحال . وعندما مثل بين يديّ وسألته أن يريني المعبود مرّة أخرى بكى وادّعى أنه أضاع الكنز . ولكن قرينه الذي استملكه بموجب الصفقة نفى ذلك وقال أن اللئيم أخفى الربّة في مكانٍ حصين خوفاً عليها من كيد الطامعين . ولكن العاشق هبّ في وجهه قائلاً إنه لم يكفه أن يستولي عليه ليتخذه عبداً كما قضى القصاص ، ولكنه بيّت النيّة للاستيلاء على الربّة أيضاً . احتدم بينهما جدال ، وبلغ بهما الغضب حدّاً جعلهما يتهاتران أمامي ويتنابزا بالألقاب فأمرتُ بوضع أيديهما في القيود وتركهما في العراء تحت الشمس حتّى يستعيد الشقيّان صوابهما . ولكني أطلقت سراحهما وأطلقت خلفهما الجواسيس

لينبئوني بحركاتهما وسكناتهما . فقد أتوني بعـد زمـن ليقولـوا لي أن المالك يتجسّس أيضاً على مملوكه طمعاً في الوصول إلى مكان المعبود. ولكن العاشق كان أدهى لأنّهم رأووه يدس أعشاباً مشبوهة في طعـام مـولاه فيسـقط الأبلـه لينـام نـوم الجثـت الهـامدة ولا يسـتيقظ حتـى الصباح. في تلك الأثناء يتسلّل الشـقيّ إلى السـفوح الرمليـة الشـمالية ليستخرج دميته ويبدأ في مناجاتها بلسان كرطانات الجنّ حتى مطلـع الفجر . وقد أخبروا أيضاً أنّهـم حـاولوا أن يهتـدوا إلى مكـان الكـنز فحرثوا الأرض حرثاً مرات كثيرة ، ولكنهم أخفقـوا في العثـور علـى البُغْية . قلتُ في نفسي أن العاشق يخفي معبودته في يمّ الرمال ليهتدي إليها في المرّة القادمة بيسر لأنه يحمل العلامة في قلبه لا في بصـره ، في حين تستعصي على القلوب التي تفتّش عنها بالأعين . أدركـت السـرّ فأمرتهم أن ينقضّوا على الشقي أثناء مناجاته ويأتوني بالمعبودة . بعـد أيام أتونـي ببغْيَـتي فتأملتهـا لأجـد أن شـبهها بربّـة المعبـد قـد ازداد . وأدهشني كيف امتنعت عنّي السـيماء في المـرّة الماضيـة . تحسّـستها ، وتفحّصتهـا ، واسـتدررت الشّـعْر مـن كيانهـا ، فتكلّـم الجمـال في قوامهـا، وفـاض الكبريـاء في الهيكـل ، حتـى أحسسـت في حلقـي بالغصص ، ونزّ الدمع من مقلتيّ ، فأدركني الحنين الـذي لم أعرفـه في نداءات اللحون. وقـد اعتـدت أن أنـاجي المعبـودة كـل يـوم ، لأنـي وجدتُ فيها ما لم أجد في صاحبة الصنم . وجدتُ في النصـب مـا لم أجده في المخلوق الذي كان للنصب أصلاً . فهـل هـذه أعجوبـة مـن

صنع العشق ؟ هل يبدع الحبّ ما عجزت عن إبداعه الإرادة ؟ هل يخلق العشق ما أخفق في خلقه العقل ؟

دسست الجِرم في مكان حصين ، فلم أصدّق عندما اكتشفت اختفاء الكنز بعد أيام . اختفى الجرم المعبود في حصني كما اختفى العاشق من حصن الواحة كلّها . بحثوا عنه في الكهوف ، وفي السفوح ، وفي المراعي المجاورة ، ولكن الشقيّ تبدّد . تحسرتُ على فقدان معبودتي الذهبية زمناً ، ولكني وجدتُ العزاء في معبودتي الحقيقية . و لم يخطر ببالي يوماً أن يكون ضياع النصب نذير سوء وإيذاناً بضياع الأصل أيضاً . فقد تتابعتْ الأحداث في واحتي منذ ذلك اليوم . فتوارت حميمتي أول ما توارت من المخدع . تحجّجت في الأزمان الأولى باسقام النساء فخمّنتُ أنها تنتظر سليلاً ثانياً ولكن أعراض الحمل لم تظهر . وبدل أن أشهد عودتها إلى المخدع فوجئت بخروجها من القصر كلّه ولجوئها إلى المعبد لتبيت لياليها هناك . وعندما ساءلتها عن السّبب تعّللت بخواء القلب وقالت إنه وعيد الخفاء الذي لا ترياق له إلاّ أناشيد الشجن والاعتصام بالحَرَم . سمعتها تتغنّى بتلك اللحون الخالدة التي يتفتّت لها الحجر ويهوي لها طير السماء على الأرض ميّتاً من فرط اللذّة ، والتي سحرت الدهاة يوماً ، فنادوا بها على المعبد ربّة . انسحبتْ في الأيام الأولى وحيدة ، ولكني وجدت خدمها وخادماتها قد انضمّوا لها وبدؤوا يقضون لياليهم بالمعبد فخالجتني شكوك . رأيت في عيني مملوكي " هور " حزناً كان

عليّ أن أحسن قراءته جيّداً ، ولكني لم أقرأ لأن الاسترخاء خمول للعقل وآفة للنفس ، فتجاهلت حزنه وأرجعت الأمر كلّه إلى غرابة أطوار هذه الملّة الغامضة المسمّاة نساءً . ذهبت مرّة لتلاوة ترنيمة حنين بين جدران الحرم فالتقتني في المدخل . نظرت في عينيها ففرّتْ ببصرها بعيداً . تذكرت الإيماء الخالد الذي يسري في جرم المعبودة المفقودة في التفاتتها الساحرة التي تراقب بها البُعْد كأنها وقفت وراء الأفق على سرّ الأبديّة . زلزل قلبي وجع ، ولكني سألتها :

– للقصاص ناموس ، والآثم في شرع الأوّلين لا بدّ أن يُحاط علماً بمتون الاتّهام .

قالت بغموض دون أن تنظر في عينيّ :

– أُحيط الآثم علماً بالتهمة منذ زمن بعيد ، ولكن صاحب الاتّهام لم يجد من صاحب الإثم آذاناً صاغية .

– الحقّ أني لا أفهم .

ساعتها التفتتْ نحوي فرأيت في عينيها امرأة أخرى . قالت بتحدٍّ :

– ألم يصرخ طيف الرحمة في وجهك يوم اللّهو سائلاً أن تتوقف ؟ ألم يصرخ صوت النبوءة في أذنك يوم اللّهو محذّراً من ارتكاب الخطيئة ؟

رمقتها بدهشة حقيقية . قلت بذهول :

– أيعقل أن تتزلزل الأرض بدمية أرادت أن تلهو بدمية ؟

أيعقل أن تهوى السماء بسبب هفوة ظلّ يريد أن يمازح ظلالاً ؟

غزا وجنتاها شحوب . تبدّل الوميض في مقلتيها حتى خلتها ستسقط مغشياً عليها . تكلّمت بلسان الكاهنة عندما تتنبّأ :

– أنت لا تدري ماذا فعلت حقّاً . أنت لا تدري أنّك خلطت القداسة بالنجاسة . أنت لا تدري أنّك خنت الوصية وزعزعت أركان الكون . أنت ..

توقفتْ . نفثت زفيراً كفحيح الحيّة . حاولت أن تكمل ، ولكن الغضبة خنقتها . رأيت في عينيها وميضاً أفظع . هل هو احتقار ؟ ولكن اليقين أن ذلك الإيماء كان رسالة عرفت منها أني فقدتها إلى الأبد . لأن المرأة تستطيع أن تخفي كل شيء ، ولكنها لا تستطيع أن تخفي قرارها يوم تصمّم أن تهجر الرجل .

وقفت بباب المعبد حائراً يومها. وقفت حائراً لأني لم أفهم . نسيت نيّتي في الابتهال ، وتبدّد في قلبي حنيني لملاقاة الخفاء . وقفت في مكاني مبهوتاً لأني وجدت نفسي متّهماً نُطق في حقّه قصاص بالموت دون أن يعلم حقيقة خطيئته . أدركتُ ، بالحاسة الخافية ، أن أمراً قد حدث ، والمكيدة التي تحاك في الخفاء قد بدأت تكتمل . تذكرت الربّة الضائعة ساعتها ، فتشاءمت وتألّمت . و لم أكن أدري أن ذلك لم يكن إلاّ صرخة الاستهلال في مسيرة النزيف الذي تلا في الزمان الذي تلا " الخطيئة " وسبق القطيعة . كان أكابر القبائل قد اعتادوا أن يلتئموا في مجلسي ممثّلين لأركان الثالوث الإلهي (رغ ،

يت ، ست) امتثالاً لمشيئة الوصايا التي تركها لي الدهاة مدوّنة في الرقع . وكانوا قد شنّوا أوّل غزواتهم على قبائل الجوار تحقيقاً لغاية مريبة ظاهرها الدفاع عن النفس أمام شهوة الطامعين ، وباطنها الرغبة في سلب الغنائم وتوسيع حدود النفوذ . وكان الفرسان من صحبان الربّة " **يت** " أكثر الأطراف حماسة ودفاعاً عن شرع الصدام . وقد سمعت أكابرهم في المجلس يردّدون بدعة فحواها أن أنبل سبيل للدفاع عن النفس هو الهجوم ، والسلاح إذا وقع في الكفّ فإنه يرتدّ إلى النحر إذا لم يستخدم ضد عدوّ . وهم يلمّحون ، بهذا الرأي الخبيث، خِفْيَة ، إلى أنصال المعادن المميتة التي أغرق بها أهل الحديد من أتباع "**ست**" أسواق الواحة ، وروّجوا بين الأهالي أقوالاً تدعو إلى ضرورة استخدام السلاح ولو من باب التجريب لأن الحديد الذي تحوّل سلاحاً ، في رأيهم ، لن يكون سلاحاً حقّاً ، إذا لم يستعمل استعمال السلاح . وقد لاحظتُ أثناء جدل الأكابر الذي سبق الموافقة على خوض أوّل صدام أن الأكابر الذين انتموا إلى قبائل " **ست** " كانوا يدعمون موقف فرسان " **يت** " خفية ، بالإيماء حيناً ، وبترديد الوصايا التي تروّج للعدوان ، وتقول أن الحياة ليست سوى رحلة عراك لا بدّ أن تُغلب فيها إذا لم تغلب . وسمعتهم يدّعون مراراً أن هذه الوصايا مستعارة من شرائع الأوّلين . وقد تصدّى لهم أرباب القبائل الذين انتحلوا لأنفسهم ، يوم اللّهو، درو أصحاب " رغ " وحثوا على التريّث والاحتكام إلى العقل ، وقالوا أن الحكمة عدوّ

قديم لمعدن الحديد ، ولم يحدث أن اجتمعا تحت سقف واحد أبداً . وقد لاحظت القبائل منذ الأزل في حضور أحدهما غياباً لثانيهما ، لأن الحكمة ترتوي من نبع التسليم ، ولكن الحديد لا يرتوي إلاّ من نبع الدم . وأذكر يومها أن قبيلة " **ست** " قد تبنّت موقف قبيلة "**يت** " عندما جاء أوان التصويت على أوّل حملة ، فانكشف الحلف، وخسر العقل أوّل حملة .

استمرّ الالتئام في المحفل كلّما استدعت الحاجة . وكانت حميمتي تجلس إلى جواري دون أن تبدي رأياً . ويبدو أن السأم قد عرف السبيل إلى قلبها من مجادلات المجلس التي كثيراً ما تتحوّل إلى مهاترات ، فبدأت تتغيّب . وقد سألتها عن السبب مرّة فأجابتني " لم أكن أعلم أن مجالس الرجال ، إذا طالت ، صارت أحقر شأناً من مجالس النساء ! " . وعندما حاججتها اعترفت أن الرجل يستحق أن يُسمع في اللحظات الأولى ، فإن تمادى ، ولم يسكت ، تحوّل كلامه ثرثرة وقلبه إلى خواء . أمّا المرأة في رأسِها ، فإنها تخفي في جعبتها دائماً قولاً نفيساً لم تقله . بل المرأة لا تقول أبداً ما تريد أن تقوله . لا تقول أبداً ما يجب أن تقوله ، لأنها تعلم أن القول الذي نكتنزه دائماً أنفس بما لا يُقاس من القول الذي نقوله . لهذا السبب لا نمل الاستماع إلى المرأة . لهذا السبب ننجذب إلى المرأة ، لأننا ننتظر أن تقول لنا في النهاية ذلك القول الذي تخفيه . ولكن المرأة أذكى من أن تتنازل لتقول سرّها ، عكس الرجل . وأنهت بيانها بالقول : " ما

أحقر شأن رجل لم يستودعه الخفـاء حكمـة ! " . أدركـت أنهـا قـد أصـدرت حكمـاً نهائيـاً على مجلسـي . وأدركـت أيضـاً أن عبارتهـا الأخيرة التي اختتمت بها بيانها الغريب كانت موجهة لي ، لا لأكـابر المجلس . و لم تكن العبارة لتثير شكوكي لو لم أقرأ فيها إيماءً آخر . لو لم أقرأ فيها الاحتقـار. ويجـب أن أعـترف أن هـذا أكـثر مـا أزعجـني لعلمي بأن المـرأة إذا احتقـرت الرجـل فلـن يحتمـي مـن سـوئها حتـى بالخفـاء . هـذه الوسـاوس زعزعـت في قلـبي حسـن النيّـة ، فتعلّمـت الشكّ، وبدأت أقرأ الإشارة التي تتسترّ وراء كل عبارة ، فـأدركت ، بعد زمن ، أن حكمه لم يكن على مجلسي كلّه ، ولكنّـه حكـم عليّ وحدي . ذلك أنّهـا بـدأت ، في المرحلـة التاليـة ، تستقطب أقطـاب المحفل واحداً واحداً ، حتّـى اكتشـفت أنّهـم قـد انفضّـوا مـن حـولي ليلتئموا في مجلسها بالمعبد . أدهشني أن ينقلب الخلق بين يـوم وليلـة ، ويولّوني ظهورهـم بعد أن وهبتهم ثقتي ، ويتنكّـروا لي تنكّـراً جعلهـم لا يرون بأساً أن يعبسوا اليوم في وجهي بعد أن قبّلوا التراب بـالأمس تحت قدمي . اعترضتُ سـبيل نبيـل أهـل " رغ " الـذي نصّبتـه يومـاً رأساً على قومه وركناً من أركان المجلس ، فقـررت أن أجادلـه برغـم يأسي من أمره . كان كهـلاً وقـوراً ، ميّـالاً للسـكوت ، يلـفّ علـى وجهه قناعاً من كتّان مصبوغ بلون الزرقة . قيـل في الواحـة أنـه أوّل من استبدل أقنعة الجلد بأقنعة الكتّان الذي جلبته القوافـل مـن أوطـان الشمال . و لم يكتفِ بذلك ، ولكنه صبغ الكتان بـاللون الأزرق بعـد

يومٍ واحدٍ من تنصيبي لـه على عرش الثالوث ركناً لسلالة " رغ " المزعومة . وعندما سئل عن السرّ أجاب قائلاً بأن لون الزرقة هو لون السماء ، ولا يليق بسلالة الأرباب أن تدبّ بين الخلق دون شعار ينبئ الأغيار عن حقيقتها التي تنتمي إلى ربّ السماء . ثم مضى في لعبته شوطاً أبعد يوم قرّر استبدال اسمه أيضاً ، فتنازل عن "إمسكني"(*) اسمه القديم ، ليتخذ " آمناي " (*) اسماً بديلاً . و لم أعر هذه البدع يومها اهتماماً ، بل اكتفيت بالتندّر بها في المجلس كما تندر بها الأغيار قبلي ، دون أن أفهم وقتها أن التندّر بالخلق ليس خطأ وحسب ، ولكنه خطر شديد. لأن في التندّر تكمن استهانة تستفزّ من نستهين بهم فلا يبّيتون لنا الحقد وحسب ، ولكن الإستهانة بشأنهم تزيدهم إصراراً على تحقيق بدعتهم حتى لو كانت هذه البدعة ضرباً من مستحيل أو جنساً من أجناس الجنون . وها هو " أمناي " يتبهنس أمامي الآن بخيلاء الأرباب ، يتلثّم بلفافة زرقاء آمن البلهاء بانتمائها إلى سلالة السماء ، يتخفّى وراء لقب جليل صدّق الأغيار السيرة التي تقول بأنه تنزّل عليه في ليلة وحياً من السماء ، يتوكّأ على عكّاز صار في يده صولجاناً وعلامة على السلطان . ها هو يحاول أن يتجاهلني ، بل أن يتجنّبني ، كما فعل قبل اليوم مراراً ، ولكني تعمدّت أن أعترضه لا لأذكّره بحقيقته ولا

---

* إمسكني : العلامة ، النصب ، إشارة الطريق . (لسان الطوارق) .

** آمناي : الرئيّ ، الكاهن ، العرّاف ، النبي ، المخلوق الإلهيّ . (لسان الطوارق).

لأثأر لنفسي من مكيدته ، ولكن لأشفي غليلي وأسلّي قلبي كما حاولت أن أسلّيه يوم اللّهو الذي وضعتُ فيه حجر الزاوية لبنيان سقطتي كما يحلو لحميميّ المفقودة أن تردّد . اعترضت سبيل الشيخ المنفوش بالثياب وسألته دون أن أفلح في إخفاء الاستهزاء في لهجتي :

– يتبدّى صاحب النبل للناس منفوشاً بالحكمة ، ويخرج صاحب الخواء ليتبدّى للناس منفوشاً بالأكذوبة .

تفحّصني وهو يلوّح بصوبلجانه في الهواء ليداري حرجاً ، ولكنه لم ينظر في عيني أبداً ، فقلت في نفسي أن في نفس الرجل ولا شكّ بقيّة من حياء . ولكنه قال بلهجة رجل يتقن المراوغة بالبيان :

– هل نعلم ، يا مولانا ، شيئاً عن معقل الحقيقة ؟ هل نعلم ، يا مولانا ، شيئاً عن معقل الأكذوبة ؟ ما يدرينا ، يا مولانا ، أن معقل الحقيقة في وطن الأكذوبة ؟ ما يدرينا ، يا مولانا ، أن معقل الأكذوبة في وطن الحقيقة ؟

– أستغرب أن أسمع بياناً كهذا من إنسان يدّعي النبوّة ؟

– على الضدّ يا مولاي : لن يسمع مولاي بياناً كهذا إلاّ من صاحب نبوّة .

– حقّاً ؟

ولكن الداهية لوّح بعكازه في الهواء ومضى يتلو نبوءته دون أن ينظر في عيني :

- بلى . لست عليماً بحقيقة الحقيقة، ولا بحقيقة الأكذوبة ، لأن ذلك علم عند الخفاء وحده . ولكني أعلم أن الحقيقة لا تستقيم بدون أكذوبة ، والأكذوبة لا تستقيم بدون حقيقة . ولو لم يكن الأمر كذلك لما وجد مولانا يوماً الحاجة في أن يلهو !

- مرحى ! مرحى ! ها أنت تتحدّث عن لهوٍ أتى بك إلى العرش سلطاناً . فأنكرت السلطان وصاحب السلطان .

- أردت أن أقول أن الباطل الذي تسمّيه لهواً هو الباطل الذي صنع الحقيقة !

- هل تسمّي ما أنتم فيه الآن حقيقة ؟

- أليس ما نحن فيه أمراً واقعاً نراه بالعين ونلمسه باليد ؟

- هل ترى في كل ما يُرى حقيقة ؟

- وماذا يرى مولاي في ما يُرى ؟

- ظننت الضدّ . ظننت أن الباطل في ما يُرى ، والحقيقة في مالا يُرى .

- إذا كان ما قاله مولاي حقّاً ، فأي معنى في كل هذا ؟ أيّ معنى في أن نتجادل ؟ أيّ معنى في أن نحبّ ؟ أي معنى في أن نعيش؟

- بلى . لا معنى في أن نعيش ، ولكن المعنى في أن نحيا !

- هذه لغة الناموس !

- ظننتُ أن صاحب الرؤيا هو أحقّ الناس بأن يُخاطب ببيان الناموس !

- مهلاً ، مهلاً ، يا مولانا !

ولكني لم أمهله . لم أمهله ، فقررت أن أتكلّم بلسان الإدانة :

- لقد نصبتكم على نفسي بالباطل يوماً ، فخلعتموني لتنصّبوا أنفسكم بالحقّ ، فهل هذا شرع ناموسكم الذي يمجّد ما يُرى ؟

قال ببرود شديد :

- بلى ، يا مولانا ، هذا هو شرع ما يُرى . نحن ، يا مولانا ، أبناء ما يُرى .

- ظننتُ أنّي سمعتك تتحدّث عن انتمائك إلى سلالات الخفاء !

- بلى . أنا سليل خفاء . ومولاي الخفاء هو الذي أوصاني بأن أحيا بشرع ما يُرى ، لأن في إخراجه لي من مكامن الخفاء إلى أوطان النور حكمة لا أعلمها !

- عجباً !

- العجب ، يا مولانا ، أن نحيا في البادية بنواميس الخافية ، ونحيا في الخافية بنواميس البادية .

- لا أستغرب بعد اليوم أن تحتكموا إلى العدوان ، وتستولوا على رقاب القبائل الآمنة ، حتّى أني بدأت أشك في أن يكون العقل المدّبر للعدوان هو عقلك !

- بلى ، يا مولاي ، العقل المدبر لما تسمّيه عدواناً هو عقلي ، وشرع الحقيقة التي تُرى هو الذي أوحى لي ببسط نفوذ الواحة إلى ما وراء حدود الواحة ، لأن الخفاء لا يهب قوماً ثروة أوسلطاناً أو

حكمة ليتلهّوا بها كما يفعل البلهاء ، ولكن ليستخدموها في الشأن الذي يُرى . وإذا لم نستولِ على قبائل الدنيا بقوّتنا اليوم ، فسوف تستولي قبائل الدنيا علينا في الغد عندما تتضعضع قوانا . لأن ناموس الخفاء دسّ سرّه في عجلة تدور إلى الأبد . عجلة شديدة تستحق اليوم ما أبدعته بالأمس ، وتحيي في الغد ما أماتته اليوم .

استمعت إليه بذهول ، لأني علمت في بيان هذا الجنّي الرهيب أن الأمر لم يكن مجرّد مكيدة ضدّ شخصي ، ولكنها مؤامرة ضد الصحراء كلّها . وامرأتي لم تكن رأساً مدبّراً للانقلاب ، ولكنها قطعاً مجرد طرف في الشبكة التي كشفها لي الداهية في بيانه المميت .

بعدها لم أستغرب شيئاً . لم أستغرب أن ينفضّ الأكابر من حولي الواحد تلو الاخر . لم أستغرب أن يتحلّقوا حول حميمتي المفقودة في قلب المعبد ليكملوا نسج خيوط المكيدة . لم أستغرب أيضاً أن يمنعوا عنّي سليلي فلم أره أزماناً نما فيها وترعرع وارتاد الصحراء ليتعلّم الصيد والشدّة وخصال البطولة . وجدتُ نفسي وحيداً معزولاً ، مهجوراً ، كما كنت دائماً ، وازددتُ يقيناً بأن قدر الرجال ، في هذه الصحراء ، هو " أنوبي " . فقد وُلدت في الصحراء " أنوبي " ، وسوف أحيا في الصحراء " أنوبي " ، وسوف أخرج من الصحراء يوماً كـ " أنوبي " ، لأن من تخلّى عنه الأب مرّة فسوف يكون له مصير " أنوبي " قدراً أبديّاً . وقد حاول مملوكي " هور " أن يخفّف عني الوزر مراراً ، فجاءني مرّة ليقول :

- ما هذا ، يا مولاي ، سوى امتحان لنعرف !

-نعرف ماذا يا " هور "؟

- نعرف حقيقة ما حقّ ، وحقيقة ما بَطُل !

- لا تحدّثني عن حقيقة تجري على لسان نبي الكذب !

- نبي الكذب ؟!

- وهل زعيم أهل " رغ " إلاّ نبي كذب ؟!

- لن نعرف ، يا مولاي ، أنبياء الحقيقة إذا لم نوجع بأنبياء الكذب .

- ولكني أضعت الحقيقة يوم قررت أن ألهو ، فآمنت بأن ربّة المعبد كانت على حقّ يوم انتهرتني وتوعدّتني بالقصاص مقابل الخطيئة.

- نحن لانتعلّم ، يا مولاي ، إذا لم نتألّم !

- أضعت الحقيقة بالشهوة إلى اللعب ، فاغفروا لي !

- اليأس ، يا مولاي ، أيضاً ترياق !

- أضعتُ سلالتي ، أضعت وطني ، أضعت حقيقتي ، وأضعتكم معي ، والأسوأ من هذا كلّه أني أضعت ابني ، فأضعت وصيّة الناموس إذ أضعت ابني .

- لا نجد يا مولاي أنفسنا إن لم نضيّع أنفسنا !

- لا أريد منكم إلاّ أن تستبدلوا اسم سليلي . أعلم القوم منذ اليوم أن اسمي لم يعد " آرا " ، ولكنه ، منذ اليوم ، سيصير

" أما هغ"(*) ، فلا تنسوا !

- كلّنا ، يا مولاي ، إيموهاغ . كلّنا ، يا مولاي ، سلالة تيه. كلّنا ، يا مولاي ، لا نعرف ماذا نفعل بأنفسنا . وجهلنا هذا هو الذي يدفعنا إلى ارتكاب خطيئة كاللّهو . لأننا لا بدّ أن نسأل أنفسنا يوماً : " ماذا سنفعل بأنفسنا إذا لم نلعب ؟" ، فيقتلنا اللّهو كما يقتل البعض الآخر الحنين . فريق منّا يموت بخطيئة اللّهو ، يا مولاي ، وفريق منّا يموت بداء الحنين !

- سليلي " أماهغ " أمانة في عنقك ، ووصيّتي لك أن تذيع بين الناس حقيقة الاسم !

- وصيّة مولاي دين في رقبتي !

بعد أيام بلغني نبأ الحكم الذي استصدره المحفل في حقّي ، فوجدتُ نفسي ، من جديد ، في ربوع المنفى !

---

* أماهغ " أو أمازيغ ، مفردها إموهاغ ، أو إما زيغن " : السليب ، أو المنهوب ، أو الضائع ، أو النبيل ، وهو الاسم الذي يطلقه الطوارق على أنفسهم .

٦. الزّلّة

وجدتُ نفسي في صحرائي ، أتغسّل بأسمال سرابي ، وأسرح في مدى برّيتي التي لا تبدأ في أي مكان ، ولا تنتهي إلى أي مكان . عدتُ إلى عزلتي ، فآمنت بعزلتي ، لأن العزلة وحدها حقيقة بدليل أني لا أحتاج في أرباعها إلى اللّهو كي أحيا . اكتشفت أن اللّهو المميت ما هو إلاّ بدعة من صنع الاسترخاء الذي تدين به الواحات . وأدركت أن ترياق هذا الدّاء أقرب لنا من حبل الوريد ، لأنه يهرع لملاقاتنا ما أن نخرج إلى صحراء تحتضننا لتهبنا دائماً البديل . سرحت وبدأت ، بالتّيه ، أصفو . تأمّلتُ ما بدا وما خفي ، ما استظهر وما استبطن ، ما يُرى وما لم يُرَ ، فتغسّلت نفسي من أعفان الخمول ، ووقفت قيد شبر أو أدنى من حرَم الخفاء حتى أيقنت أني لو هتفت به لأجابني ، ولو صمدت في تطفلي قيد أنملة لتراءى لي . ولكني كنت أخاف في كل مرّة ، فأحبس هتافي كي لا يستجيب لندائي ، وأخنق تطفلي في رأسي كي لا يتبدّى في وجهي . أتوقّف عن معاندة ما خفي لأتلهّى بقراءة طلاسم الأوّلين على أنصاب الحجارة أو على جدران الكهوف ، أو أستعيد سيرتي الأولى فأركض وراء قطعان الغزلان ، أو أطارد رؤوس الودّان كما فعلت في الزمان القديم عندما

رمت بي الأقدار في حضيض الواحة ، فأكلت لحم ذوي القربى مشويّاً بنار الصاعقة السماوية ، فاشتعل بدني منذ ذلك اليوم ، بالشهوة . سرحتُ في البريّة الحميمة . سرحت لأستمتع بوحدتي ،لأتلذّذ بخلوتي مع معشوقتي التي اكتشفت أني خنتها يوم استبدلتها بمخلوقة أخرى ما لبثت أن خانتني . ناجيت معشوقتي القديمة بأشجى الأشعار ، وغنيت لها مواويل شجون لم تسمعها حتى من مغنيات الجنّ اللاتي رأيتهن في الكهوف ، وقابلتهن وهن يسرحن في الخلاء عندما يستوى القمر بدراً . نسيت لعنتي . نسيتُ قدري . نسيتُ مصير " أنوبي " الذي طوّق دوماً عنقي . نسيتُ الأب المفقود . نسيتُ الناموس المفقود . نسيتُ الحميمة المفقودة . نسيتُ واحتي المفقودة ، نسيتُ حقيقتي المفقودة . لأن الصحراء قررت أن تصير لي أباً وناموساً ، وحميمةً ، ووطناً ، وحقيقةً ، فرميت بنفسي في حضنها، فأمنتني ، وهدهدتني ، وهوّنتْ عليّ ، فأنستني نزيفي . همتُ في رحابها . اعتليت القمم الجبلية لأكتشف هناك ينابيعاً لم تهبهم صحرائي لمخلوق قبلي . ونزلت الشعاب والوديان لأجد في القيعان آباراً أخفتها حميمتي عن عيون الأغراب دهوراً . وتسكعت في السهول فأطعمتني فاكهة خفية لم أذق للذّتها طعماً . احتفت بي صحرائي كما تحتفي كل أمّ رؤوم بسليلها الضّال . بسليلها العائد بعد رحلة ضلال . فكيف لا أقول في حُسْنها الأشعار ؟ وكيف لا أُغنّي لمجدها مواويل الشجن ؟ .

ولكن معشوقتي القديمة لم تكتفِ بكلِّ هذا السخاء لتحتفي بعودتي ، ولكنها أرسلت في طريقي جنّاً يتخفّون في أجرام الخلق ليسلّوني ويطردوا من قلبي خلوة يسمّيها الأنام وحشة . ثم بعثت في طريقي خلقاً يتنكّرون في جلود الجنّ لتريني قساوة الخلق . ولكن ظلّ الصفاء الذي قرّبني من حقيقتي الخفيّة هو أنفس ما استضافتني به على الإطلاق . لأن هذا الصفاء الجليل هو الذي أوقفني قيد شعرة من الحَرَم الذي أحسست فيه بأني لو نطقت بالنداء لسمعت جواب ما لم تره عين ، ولم تسمعه أُذُن ، ولم يخطر ببال بشر . صارت أوجاع الماضي التي طوّقتْ بها الصحراء عنقي يوماً لتمتحنني وتصنع منّي رجلاً ذكرى نعيم حميم ، وصارت لذّات الخمول التي أغدقت بها الواحة عليّ ذكرى جحيم دميم ، فأيقنتُ أن الجحيم كثيراً ما ينقلب نعيماً عندما يتحوّل إلى ذكرى ، والنعيم كثيراً ما يتحوّل جحيماً عندما يتحوّل إلى ذكرى ، لأن الطلسم ، على ما يبدو ، رهين بلغز اسمه الزمن الذي يتعمّد أن يستنسئنا ويستمهلنا ولا ينبئنا بحقيقة ما حدث يوماً إلاّ بعد تبدّد أجل معلوم .

استهواني الاستشفاء ، وأحسست بنفسي خفيفاً كقشّة، نقيّاً كدمعة ، كمن استفاق من مرض مميت طويل ، وابتسمت ، لأني ادركت أن محفل الكيد قد أحسن إليّ من حيث ظنّ أنه أسأ لي . ولكن كابوس الواحة ما لبث أن اقتحم عليّ خلوتي ليشوّش نعيمي ويفسد أمري . فهل ما يقوله حكماء القبائل عن حسد الخفاء الذي

لا يطيل سعادة أحد حقيقة ؟ .

والنبأ الذي بلبلني لم أسمعه من رسول أو مبعوث ، ولكن من عابر سبيل ألقى به في أذني عفواً عندما قضى ليلته إلى جواري قبل أن ينطلق في طريق الشمال في اليوم التالي . اجتمعت به عند حدود صحراء " تينغرت " السخيّة عند أعتاب ضريح مهيب من ذلك الطراز الذي اعتادت الأجيال السالفة أن تقيمه لأكابرها وزعمائها وعظمائها وكهنتها . دسستُ في أحشاء رمل النار بضع حبّات من الكمأ الرمادي اللّون جنيتهما أثناء تجوالي في وادٍ نال مطر خريف من سحابة طائشة ، فتاه وَجْداً ما إن اشتمّ نكهة الترفاس ، وشرع يئن كعليل أوجعه المرض . وعندما أخرجتُ الكنز وطرحته أمامه ليأكل حدّق في الفاكهة الخرافية طويلاً ، ثم بدأ يتأمّل كل قطعة بفضول عرّاف يتسقّط نبوءة دون أن يكف عن أنينه الغامض . ولم يكشف لي عن حقيقته إلاّ بعد منتصف الليل . تغنّى ، في البداية، باسم واحة اسمها " تارجا " فلم أعرف عما إذا كان يتغنّى بواحتي الضائعة ، أم بـ " تارجا " التي تغنّت بها الأجيال في ملاحم الأسلاف ، وأضاعتها القبائل في أزمانٍ لا يذكرها أحد ، فصارت اسماً يطلقه الدهاة على كل وطنٍ لا رجاء للذاهب إليه في أن يعود منه . وقد سمعته أخيراً ينهي أغنيته بالقول بأن الأسطورة التي نصدّقها لا بدّ أن تصير حقيقة حتى لو كانت في أصلها أكذوبة ، وما يشتهيه المخلوق في الخافية ، لا بدّ أن يجري به الخفاء في البادية ، والدليل على ذلك هو واحة

"تارجا " التي لم تشهد أوطان الصحراء لها مثيلاً . ثم سألني بغتة :

- هل بلغك نبأ الساحر الذي لفّق من معدن الذهب لربّة المعبد مثالاً فاستولى على روحها ؟

- يُقال أنه لفّق المثال عشقاً للجمال ! ولكنه فرّ من الواحة خوفاً على إبداع استودعه روحه !

- بلى إنه في صلد المعدن التقى روحان : روح الربّة وروح مبدع الربّة !

- يروق لي هذا !

_ لأن ناموس الأرباب ، في عُرف هؤلاء السحرة ، خلْق المخلوق ، وناموس المخلوق خلق الأرباب ، خلق الخالق بالإبداع . هنا يبيت السرّ . هنا يكمن العشق المجنون .

- ما أبدع هذا ! هل أنت شاعر ؟

ولكنه لم يجب . مضى يستلقي إلى جواري في العراء ويتكلّم بصوت مَنْ يناجي الأنجم أو يخاطب نفسه :

- ظنّ ربّ الواحة أن عاشق الربّة قد فرّ من الواحة ، ولكن هل يفرّ عاشق من معشوق ؟ هل يفرّ المخلوق من خالقه ؟ أم خالق من مخلوقه ؟ هيهات ..

- ألم يفرّ الشقيّ من الواحة ؟

- لا يفرّ العاشق من معشوق أبدعه من روحه قبل أن يسوّيه بيديه . لا يفرّ العاشق من معشوق لأن العاشق للمعشوق قَدَر ، كما

الخالق في عنق المخلوق قَدر . لقد سحبت الربّة البساط من تحت قدمي ربّ الواحة لأنه وهبها سلطاناً وبخل عليها بالإبداع ، وارتمتْ في أحضان العاشق الذي خلقها لأنه أبدعها .

- ماذا تريد أن تقول بقولك أن ربّ الواحة وهب الربّة سلطاناً وبخل عليها بالإبداع ؟

- أردت أن أقول أن صاحب الأمر وهب امرأته واحةً ، ولكنه لم يهبها قلباً . والوطن في عين المرأة القلب وليس الأرض ، وخطيئة ربّ الأمر أنه نسي أن المرأة تفرّ من صاحب مُلْك وهبها مملكةً وحجب عنها قلبه ، وتستسلم لراعي أغنامٍ أسكنها العراء ووهبها قلبه !

- ويْلٌ لرجلٍ أَمِنَ امرأةً !

- يُقال أن ربّة الواحة بعد أن أخرجت رجلها من أرباع الوطن تنازلت لحميمها عن العرش !

- مهلاً ! مهلاً ! خبّرني أوّلاً عن حقيقة اختفاء العاشق من ربوع الواحة !

- العاشقِ لم يختفِ من ربوع الواحة . المرأة خبّأت المعشوق في مخدعها !

- في مخدعها ؟!

هتفتُ بالعبارة هتافاً كاد يفضح حقيقتي . والحقّ أن النبأ زعزعني ، لأني ككل رجل مخدوع كنت واثقاً من نفسي إلى حدّ أنّي

لم يكن من حقّي أن أصدّق . ولكن الشاعر لم يرحمني بسيرته :

- يُقال في الواحة أن الكاهنة استولت على زمام الأمر بعد رفض الحميم الجلوس على العرش لا حبّاً في السلطان ، ولكن تأكيداً لحقّ سلالة الأمّ في الاستيلاء على الدنيا ، و كذلك انتقاماً من رجلها الطريد .

- انتقاماً من رجلها الطريد ؟

- أرادت أن تثأر من رجلها لأنه ، كما يُروى ، قد قام يوماً بنحر أبيها !

سكتَ فسمعتُ في سكون الليل بلبلةً خلتها صخب الجنّ . أدركت أن الخفاء إذا تخلّى عن مخلوق فلن ينجو من الطعن حتى في أبعد صحراء . تحسست علىأصوات البلبلة في قلبي ، فسمعتُ رسول السبيل يمضي في روايته :

- ولكن المخلوق الذي فرّ من الواحة ليس العاشق ، ولكنه الولد !

- الولد؟

- سليل الزعيم الأوّل !

سمعتُ نبض قلبي بأذني . ولكني تساءلت :.

- ولكن إلى أين فرّ الولد ؟

- إلى صوب مجهول ، بحثاً عن الأب !

- هل قلتَ بحثاً عن الأب ؟

- بلى . كلّنا نبحث عن الأب . إبـن لا يبحـث عـن الأب لا خير فيه . ابـن لا يبحـث عـن الأب لا يفلـح . يُـروى في الواحـة أن الأب لم يكن ليكتشف كنز واحة اسمها " تارجا " يوماً لو لم يبحـث عن الأب .

سكت . بعد قليل سمعتُ أنفاسه تنتظم فعرفت أنه نام . ولكني لم أعثر له على أثر في الصباح ، فلـم أعـرف إلى اليـوم عمّـا إذا كـان ضيفي في تلك الليلة مهاجراً من سلالة العابرين ، أم شبحاً مـن رُسُـل الجنّ .

٧. السَّحَّر

نبوءة عابر السبيل عن الابن الذي خرج بحثاً عن الأب أيقظت في صدري حنيناً منسيّاً إلى الولد فبدأت أتسقطّ عن مصيره الأنباء . ولكن الولد ابتلعته الصحراء الواسعة . وبدل أن يأتيني العابرون والرعاة وأصحاب القوافل بخبره أتوني بأخبار الدسائس التي حيكت بين أركان المحفل من جانب ، وبين أساطين القصر من جانب آخر . فقد قيل أن زعيم الزمرة " كما يسمّيه أهل الواحة " قد قطع رأس زعيم أبناء " ست " لشكوكه في نواياه واختار دمية من تلك القبيلة بديلاً له . ثمّ أقصى زعيم أبناء " يت " عن المجلس أيضاً لمجاهرته بآراء ترى في غزو قبائل الصحراء مغامرة خطرة وسفكاً للدماء لا ضرورة له ، واستبدله أيضاً بدمية من تلك القبيلة . ولم يكتف بذلك ولكنه دبّر المكيدة ضد ربّة الواحة ، فاختطف معشوقها الشاعر فلم يعثر له أحد على أثر ، وقيل أنه أماته ودفنه في تخوم الواحة الجنوبية الوعرة . وقال آخرون أنه لم يدفنه ولكنه سلّمه لأهل الحديد الذين حرقوه في أفران صهر المعادن ليضيعوا الأثر . وتوقّع الناس أن يذهب الداهية بعد ذلك ليستولي على العرش . ولكن زعيم الزور كان أدهى من ظنون البلهاء فذهب إلى المخدع بدل العرش ليحكم الواحة من هناك .

اتّخذ من الكاهنة قرينة ، ولكنه تركها على العرش فزّاعــة خاويـة ذرّاً للرماد في العيون . في حين تستّر وراء جرم الفزّاعة ليتولّى الأمر خفيّةً . ولكن غلب الخفاء الذي تولّي الأمر بالزمان .

تدفّق الزمان فحقّق جند الواحة علـى قبـائل الصحـراء غلبـة لم تدم طويلاً . ذلك أن اسـتمرار الغـزوات ضـاعف علـى أهـل الواحـة أعباء المكوس فأنهك الخلْق وتضعضـع حـال الواحـة فـانقلب السّـحر على الساحر . تلقّت الواحة ضربات موجعة ، وانحسـر نفوذهـا علـى الصحـراء رويـداً رويـداً ، وعبسـت في وجههـا الأيّـام فـتراجعت إلى موقف الدفاع عن النفس . ثـم فقـدت موقـف الدفـا ع لـترتضي دفـع الإتاوة مقابل أن تدعها سيوف الغلبـة تجـترّ انكسـارها داخـل حـدود قوقعتها . ساءني مصير واحتي التي كانت يوماً ربّة العمـران والرخـاء في الصحـراء كلّها وواحــة الأمـان ونعيـم الأزمـان في تـاريخ الأجيـال كلّها ، فما كـان منّـي إلاّ أن تسـاءلت بفجيعـة المكلـوم عـن حقيقـة الأدوار وأهواء الأزمان فأجابتني عن سؤالي جنيّة صحراوية جاءتني في خلوتي يوماً متنكّرة في أسمال كاهنـة قادمـة مـن صحـاري الجنـوب ، ترافقها وصيفتان تتشبّث إحداهما بيمينها وتتعلّق ثانيتهمـا بيسـراها . يتقدّم ركبها سرب من مردة يتنكّرون في أجرام العبيد ، وحاشية مـن الخدم والأعوان . أخذتني الجنيّة من يدي واختلت بي في العراء لتقول لي أن الماء يتبخّر ، والرمل يتبـدّد ، والحجـر يتفتّـت ، والدنيـا أزمـان ثلاثة : زمان الأمس أكذوبة ، لأنّـه لا يُسـتردّ بـأي حكمـة ، وزمـان

الغد وهم ، لأنّه لم يأتِ وربّما لن يأتي برغم يقيننا بأنه سيأتي . وزمان اليوم حلم ،لأننا لا نملك الحجّة بوجوده بسبب لؤمه الذي يجعل منه قنطرة رأسها يتغيّب في ما سيأتي ، وعقبها يتغلغل في ما مضى وانقضى . ثمّ تحدّثت عن سجيّة الأيام فقالت أن كل زمان ينقسم أزماناً سرّها في ساعة ، والساعة سرّها في اليوم ، واليوم هو ما يسمّيه منطق الأنام الدهر ، لأن هذه الأعجوبة تنقسم إلى أربعة وعشرين ركناً ، كلّ ركن في هذه الأركان يخفي حياة . وتساءلت بأسى وهي تختتم أسماء الأركان : " فماذا تريد أكثر من هذا أيها الإنسان ؟ ماذا تريد من دنياك أيها الشقيّ ؟ أيستوي أن تولد وألاّ تولد يا سليل الباطل ؟ " . كان وسم الباطل محفوراً على جبيني ، ويومئ في عيني ، ويلتفّ ببدني ، فأوجعها على ما يبدو قَدَري فقرّرت أن تلقي في سمعي بوصية أخيرة : " لا يستوي الذين عاشوا بالذين لم يعيشوا . لأن مَنْ عاش فقد عاش حتى لو هلك ، ولكن لا ذكر ولا أثر ولا وجود لمن لم يولد . وصدّقني أن الخفاء كان بك أرحم لأنه آثرك وأوحى لك واستودعك وصاياه ومنّ عليك بحياة دهور يحسبها أهل الجشع غمضة نلتَ من أركانها حتى الآن ثلاثة وعشرين ركناً ولم يبق لك منها ، بعد مرحلة السَّحَر ، سوى مرحلة الصباح ، فإن عرفت كيف تحيا فقد أفلحت ، وإن أخفقت فقد أضعتَ . واعلم ، أخيراً ، أن الخسارة ليس في أن تبيد وتزول ، ولكن الخسارة في ألاّ تعرف كيف تبدأ الحياة من جديد ". ثمّ ولتني

ظهرها ، وامتطت دابتها ، ورحلت .

في ذلك الزمان كنت قد انكفأت داخل نفسي ، وحفرت في مجاهلي أنفاقاً ودهاليز وسراديب ، فسرتُ في سبيل الحَرَم فاكتشفت ما اكتشفته يوماً عندما أحسست بأني لو نطقت بالنداء لسمعتُ جواب السرّ الذي لم تره عيني ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر بقلب بشر، فتلمستُ طريقي من هناك لأهتدي إلى الوصايا ولأجاهد الطلاسم وأفكّ ما استغلق من رموز لأدوّن بالرموز الوصايا . نحتُّ العلامات في قلبي ، وحملتها زماناً في سرّي قبل أن يجيء اليوم الذي وجدتُ نفسي فيه اختطّها على جدران الصلد مستعيناً بشظايا الحجارة . طفتُ المغاور وارتدت الكهوف لأبثّ الصلد شجوني ، لأحيي الصلد بحنيني ، لأستودعها حقيقتي ، ولأجعلها على سيرتي وصيّاً تتولّى نقلها إلى الأجيال . وَسَمْتُ ما حدّثني به قلبي على رقع الجلود أيضاً حرقاً بالنار ، وأخفيت الرقع في كهوف كثيرة ، ولكن قلبي حدّثني بتفوّق الحجر ، ووفاء الحجر ، وعشق الحجر ، فسلمتُ للحجر قلبي ، واستودعته عشقي ، وأمنته على حنيني ووحيي ، لأن وسواساً حدّثني بتضعضع زماني، وذهاب أيامي ، واقتراب صباحي .

٨. الصّباح

ضيّقت القبائل المعادية الخناق على الواحة ، واشتدّت وطأة المكوس على الأهالي ، وتعلّم حكماء الزور في المحفل أن لا سبيل للعودة إلى الوراء لمن جازف منذ البدء وبادر بالشرّ . لأن العودة إلى الوراء لا تقف عند حدود التسليم ودفع الإتاوات لصاحب الغلبة ، ولكنه تنازل أبدي لا يقف عند حدّ . وهو ما حدث للواحة في مغامرته ضد القبائل المجاورة . وقد بلغتني أنباء تتحدّث عن سخط الأهالي وضيقهم بحكم مجمع الزيف الذي أذاقهم مرارة الذّل وأذاق ذرّيتهم مرارة الجوع ، فانتفضوا مراراً ، ولكنهم تعرّضوا للقمع بشراسة . أمّا أكابر القبائل الثلاثة فاجتمعوا وتجادلوا وتهاتروا قبل أن يتوصلوا إلى حيلة تقيهم ، حسب تقديرهم ، شرور التحصّن بأسوار الواحة وتلقي الضربات على يد الأعداء من الخارج . تنادوا ، بموجب الحيلة ، وتواصوا أن يلجؤوا إلى الصحاري المجاورة ليتحصّنوا بصحراء لم تخذل من استجار بها يوماً حتى يكونوا طلقاء في صدّ الأعداء وفي حماية الواحة من خارج الواحة ، في حين استبقوا الأعوان والصنّاع من أبناء قبائل " ست " ليقوموا بتدبير شئون الواحة في الداخل متخفّين وراء بعبع الكاهنة الأجوف .

ولكن اللعبة ، كما قيل ، لم تشفِ غليل الأهالي الذين عبّروا عن سخطهم جهاراً تعبيراً زعزع أركان الواحة مراراً ، لأن طغيان زعيم الزور لم ينتهِ بخروجه إلى صحاري الجوار ، بل تضاعف وتفاقم من خلال الأعوان والأتباع والرّسل ومن خلال الزيارات الخفيّة التي دأب على القيام بها إلى داخل القصر متنكّراً في أسمال الخدم ليجتمع بدميته في المخدع ويضع للواحة شرائع التدبير .

ولكن الأعوان والأتباع وأهل الصنعة وحتّى الخدم بدؤوا يتجاسرون مع الأيام . لأن اللعبة إذا استمرّت طويلاً فلن تعود لعبة . لأن ضعاف النفوس لا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم من تصديقها ، وإذا صدّقها ضعاف النفوس صارت حقيقة . فقد فوجئت في أحد الأيام بمملوكي القديم " هور " يقبل عليّ رسولاً على رأس كوكبة من الفرسان. قال لي أن الأكابر قد أفلحوا في حماية الواحة من الغزوات حقّاً ، ولكنهم كسبوا حروباً في حين خسروا أنفسهم ، لأن صدّ الغزوات أكل من لحمهم وأباد رجالهم ولم يبق من جيوشهم إلاّ فئة قليلة . وداهية الزور لقى مصرعه على يد أحد عبيده في المخدع بالقصر . وعندما سألته عن مصير الكاهنة نكس رأسه ، وفاضت من مقلته اليمنى دمعة قبل أن يخبرني بأن الدهماء دسّوا المدية في نحرها أيضاً . سألته عن السليل فبكى وتحسّر وقال أن الولد لم يُعثر له على أثر منذ استولى زعيم الكذب على القصر ولا يستطيع أن يعِدني بشيء برغم أنه لم يتوقّف عن البحث . سألته أن يروي المزيد ،

ولكنه أوضح أن كل ما يعلمه أن هاجس الولد هو الفوز بالأب . ساعتها تذكرتُ قَدَري وأدركت أنّه غلّ سأورثه للسلالة ، لأن لا خير في ذريّة لا تطلب حقيقتها في أبوّتها ، ولاجدوى من مخلوق لا يفتّش في دنياه عن علّته . ولكن البحث عن الأب ، برغم ذلك كله، خطر . والسليل إذا سار في هذا الطريق فويل له من أهوال الطريق ، لأنه لن يجد طعماً لسكينة ، ولا لهناء ، لأن وسمه سوف يكون بحثاً وخبزه لقمة مجبولة بالشقاء . ولكن عزائي أنه حقّاً إبني الذي صدقت فيه نبوءة الدهاة القدماء الذين قرؤوا له يوماً في الرؤيا مصيراً سيصير فيه مريداً يحمل في قلبه سرّ السلالات وطلسم الأمم .

خيّم على الرسل الوجوم إكباراً لحزني ، فلم يجسر " هور " على مفاتحتي بالأمر إلاّ بعد منتصف الليل . قال إنهم أقبلوا عليّ رسلاً من أهل الواحة الذين نادوا بي على الواحة زعيماً منقذاً ، وسوف لن يرتضوا بسواي على الواحة سلطاناً . وقال أيضاً بأنّهم كُلّفوا بإبلاغي بأن الواحة التي نلتها من يد الخفاء يوماً هبةً صارت مع الأيام في عنقي وصيّة أيضاً . وتركها لعبة في أيدي الهواة والأدعياء والمغامرين خطيئة لا تُغتفر بعد اليوم . وعقلاء الواحة الذين يناشدون قدومي لا يريدون أن يثقلوا كاهلي بهمّ الدنيا ، ولكنهم يرجون أن أقبل الجلوس إلى جوارهم رمزاً ، لأن وجود الذين تألّموا كثيراً ، في عُرف الناموس ، بحدّ ذاته حكمة وتميمة ووصيّة . فلم أجد حيلة إلاّ الامتثال. امتثلتُ . وذهبت إلى الواحة ، ولكني لم أمكث في ربوعها

طويلاً . لأنّ الهمّ غلبني ، والإستسلام للأرض خنقني وأورثني حزناً مميتاً لم أستطع أن أتحرّر منه إلاّ بالعودة إلى رحاب الترحال . نَصَّبتُ على الواحة مملوكي " هور " وريثاً ، وأوصيته ألاّ يكفّ عن البحث عن سليلي الضائع ، شريطة ألاّ يوليّه أمر الناس يوماً . لأن مَنْ تولّى أمر الناس صار للناس مملوكاً . ولا يصير لنفسه مالكاً وللخفاء خلاًّ إلا المخلوق الذي تخلّى . وصاحب الوصيّة لا يفلح في الوصيّة إذا لم ينقطع و لم يتخلَّ . فإذا هداه الزمان إلى السليل اليوم فعليه أن يدفعه إلى الرحيل ، لأن العبور مصير في عنق كلّ من كان له البحث عن الأب قَدَراً . و " أماهغ " هو إسمه الذي سيحمله طلسماً بين الأمم ، و " تارجا " ستكون لذرّيته علامة في العلن ، لأن نبوءة العهد القديم أخبرت أن أجيال الأغراب هم الذين سيطلقون عليه اسم " تارجي " تيمناً بالوطن ، فتجري على ألسنة بعض الأقوام " تارقي " وعلى ألسنة أقوام أخرى " طارقي " دون أن يدروا أن لعنة " أنوبي " أن يحيا بين الأنام غريباً .

عدتُ إلى خلوتي فتلقّاني الدهليز ليخبرني بحقيقة أمري . غصتُ في الأنفاق بعيداً ، واستخرجتُ من الأعماق كنوزاً حفرتها في أبدان الصخور وصايا . و لم أتوقّف عن البحث إلاّ في ذلك اليوم الذي توقّف فيه على رأسي شبح متلحّفاً بعتمة المساء . كان راجلاً ، نحيل البُنْية ، طويل القامة ، يتقنّع بلثام بائد ، معفّر ، كئيب اللّون . يلتفّ في ثوب باهت ، بائد أيضاً . في عينيه أيضاً رأيت إيماء لكآبة .

كلاّ ، كلاّ. لم يكن ما رأيته في عينيه كآبة ، ولكنه تصميم المهاجرين الأبديين . كلاّ ، كلاّ . لم يكن ذلك تصميم المهاجرين ، ولكنه شقوة المهجورين . بلى ، بلى . تلك كانت شقوة المهجورين الخالدين . شقوة الباحثين الضائعين . شقوة الممسوسين بالحنين . شقوة المبلبلين بالحُلم والرؤى والشِّعر . شقوة الممسوسين الذين جاءوا إلى الصحراء ليحيوا بين الناس أغراباً ، ولم يجدوا ما يفعلونه بأنفسهم في هذه الدنيا إلاّ أن يفرّوا ويتنقّلوا . شقوة الملّة الخفيّة التي يجري في عروقها دم " أنوبي ". بلى ، بلى . هذا الشقي الذي يقف أمامي مرتاباً ، وجلاً ، متردّداً ، كأنه ينتظر الفرصة ليهرب من وجهي إلى الأبد ما هو ، في حقيقته ، إلاّ سليل " أنوبي " !

بدأ يرتجف وهو يتوسّل :

- جرعة ماء ! هل لي بجرعة ماء ؟

هرعتُ إلى صخرة الجوار . أتيت بقربة ماء ملآنة إلى نصفها . انتزعها منّي بخشونة ، ولكنه لم يلقِ بفم القربة في فمه . تشبّث بها بكلتا يديه وبدأ يتفحّصني بنظرة غائبة ، ولكنها صارمة . عرفت أنه يعاند الشهوة إلى الماء . يعاند ببطولة لم يعرفها أهل الصحراء إلاّ في العابرين الخالدين الذين جرّبوا الظمأ طويلاً . لأن من جرّب الظمأ وحده يعلم أن مقاومة الظمآن شهوته إلى الماء أجدر بلقب البطولة من الفارس الذي يرمي بنفسه إلى الموت . لأنّ من جرّبوا الظمأ وحدهم يعلمون أن الظّمأ هو الموت ، بل مصير أسوأ من الموت .

تمهّل . ابتسم . في مقلته ومضت بسمة مغتصبة ، مقتضبة ، كأنّه يعتذر لي . كأنه يستسمحني ، لأنه اقتحم عليّ حياتي وأفسد خلوتي . ولكنه عاد فاكتأب . عاد وميض الشقوة الخالدة يومئ في عينيه . ساعتها رأيته يشيّع القربة إلى فمه فانحسر الثوب الباهت عن ساعديه النحيلين كعودين من الحطب ففاض قلبي بالشفقة . شفقة لا عليه ، ولكن شفقة عليّ أيضاً . شفقة لا عليّ وحدي ، ولكن شفقة على خليقة الصحراء كلّها . شفقة على الإنسان إذْ جاء إلى الأرض يسعى تاركاً في وطنٍ مّا قلبه ، فوجد نفسه معلّقاً يرنو إلى الأفق الذي يبشّر بالوطن ، ولكنه الأفق الذي لا يفي بالوعد لأنه أفق يفضي إلى الأفق . ففتّش الإنسان عن حقيقة في اللامكان ليطفئ نهم جوفه الخاوي إلى ظمأ جوفه الخاوي ، إلى كنزه المفقود . فمن أنت أيها الإنسان ؟ وإلى أين أيها الإنسان ؟

تجرّع الماء بتمهّل . بكبرياء . بتصبّر على النهم إلى الماء . ثمّ توقّف فجأة ، توقّف قبل أن يرتوي . قبض على فم القِرْبة وأومأ لي ببصره أن أعطيه الخيط . ناولته سير الجلد فأحكم الرباط حول فم القربة ، ولكنه استبقاها بين يديه . أجلسته بجوار الأمتعة وأخرجت له تمراً . حدّق في الطبق ، ولكنه لم يتناول حبّة واحدة . قال بصوت غامض :

– يجب أن أمضي !

أطلقت النداء الذي أوجعني وجرى في قلبي دون أن أدري :

_ إلى أين أيها الإنسان ؟

– الأمل في أن نمضي !

أيقنت أن في صدر العابر يتكلّم قدر "أنوبي " فتساءلت :

– هذا صوت الحنين . أراهن أن ما أسمعه صوت الحنين .

– كلّنا أصحاب حنين .

– ما فائدة أن نمضي إذا كانت الصحراء تستضيف أهل الخواء، ولكنها تضيق بأهل الحنين ؟

– وبرغم ذلك لا نريد لأنفسنا مصيراً غير مصير الحنين .

– صدقت . لو خُيِّرنا لما اخترنا إلاّ الحنين !

– يجب أن أمضي !

أحسستُ بميل إليه فأخافني أن يختفي . ميل أقوى من ميل سليل " أنوبي " إلى سليل " أنوبي ". ميل أقوى من ميل المهجور إلى قرينه المهجور . لأن ميل الحنين ، على ما يبدو ، ميل من جنس فريد . لأنّ صاحبه لا يرتوي إلاّ من صاحب حنين .

استمهلته ، ولكنه أوضح بتصميم :

– أمامي سبيل بعيد .

– مهما قطعت في السبيل فاعلم أنّك لن تدرك الحنين !

– الحنين الذي ندركه ليس حنيناً . ولكن الأمل ، يامولاي ، في السبيل ، لا في غاية السبيل .

أثار لسانه إعجابي ، وازداد قلبي بقلبه تعلّقاً ، فقررت أن

أبحث عن حيلة أخرى لاستبقائه إلى جواري ولو لليلة . ولم أدرك إلاّ ليلتها أن الميل إلى غير الحنين خطيئة في حقّ الحنين وفي حقّ أنفسنا . ولكن إدراك اليقين يأتي دائماً بعد فوات الأوان . فقد ارتكبت خطأً مميتاً بالتخلّي عن لغة الإيماء والاحتكام إلى بيان الدهماء بكشفي عن كنز كان عليّ أن أبقيه في قلبي سرّاً :

- ألاّ يحقّ للسلف أن ينعم برفقة الخلف ليلة ؟

رمقني باستنكار . ويبدو أنه لم يفهم فتشبّث بالصمت . كان عليّ أن أقرأ في استنكاره خطراً فأتوقّف ، ولكني وجدتُ نفسي أقطع شوطاً أبعد في سبيل إماطة اللثام عن سرّي :

- هل تقضي الليل بمعيتي لو أخبرتك من أنت ؟

في ضوء البدر الوليد أبصرتُ في مقلتيه وميضاً أغرب . أبصرت في عينيه دهشة ، واحتياراً ، وألماً . لم يجب على سؤالي فاقتربت منه خطوة ، خطوتين . انحنيت فوق رأسه وهتفت بصوت من اكتشف بئراً أو نبعاً :

- أنت آرا ! لا شكّ أنّك آرا !

انقلب كل شيء في غمضة . فزّ الشبح النحيل من مكمنه فزّة مارد وارتجّ رجّة لم أر لها مثيلاً في جسد مخلوق . لم أرَ له مثيلاً إلاّ في أجساد الممسوسين الذين لوّعهم الوجد طويلاً . لم أعرف بعدها ما حدث يقيناً . كل ما لمحته هو نصل المدية عندما تحمّم بضوء البدر الوليد. ثمّ ..

ثمّ حرارة السائل اللزج ، المتخثّر الذي تدفّق من نحري . كنت ما زلت واقفاً في مواجهته عندما حشرجتُ بالسؤال :

- ولكن .. لماذا ؟ لماذا قتلتني ؟

سمعته يجيب :

- لأنّك ستفشي للخلق سرّي إذا لم أفعل ، فاغفر لي !

أطبقت بيدي على نحري . أحسست بالدوار . ولكن الطعنة التي أحسستها في قلبي كانت أقسى من الطعنة التي أحسستها في جسدي ، فاستبسلتُ :

- ألا تعلم أنّك .. أنّك قتلتَ أباك ؟

- هراء ! كثيرون ادّعوا أبوّتي !

- النبوءة لا تصدق إلاّ في المرّة التي نحسبها كذباً ! أنا أبوك !

- هراء !

- هل قدر الابن أن يميت أباه ؟!

- كلّنا ، يا مولانا ، خلقنا لنميت آباءنا . من منّا لم يبحث عن أبيه ؟ من منّا لم يرد أن يقتل أباه ؟

قرأت في عبارته نبوءة راقت لي فغالبت الدوار ، وحشوتُ طرف لثامي في جرحي ، وجلست أرضاً . قررت أن أقول نبوءتي أيضاً :

- لا بدّ أن نميت الأب كي نبحث عن الأب . لا بدّ أن نميت الأب كي نجد الأب !

سمعته يردّدها ورائي كالمأخوذ :

- لا بدّ أن نُميت الأب كي نبحث عن الأب . لا بدّ أن نُميت الأب كي نجد الأب !

- أتعلم أن أباك فعل يوماً بأبيه ما فعلته أنت الآن بأبيك ؟

لم يجب . بدأ قرص البدر يرتجف ويكتئب في عيني فكلمت الشبح بوصيّتي الأخيرة :

- لك منّي وصيّة : لا تمدّ يدك على إنسان شربت من يديه جرعة ماء !

اختفى . فوجدت نفسي في سكوني معزولاً ، مهجوراً ، كما وجدتُ نفسي دائماً . وكان أكثر ما أخافني ألا أقدر أن أوقد النار لأستضيء بضوئها لأستكمل الرقعة الأخيرة في سيرتي التي أدركت الآن أنها لم تكن حقيقة . ولكن رغبتي الجنونية في تحويل الحلم إلى حقيقة جعلني أستميت حتّى تمكنت من إشعال النار لأطبع على رقعة الجلد وَسْماً أخيراً يكون برهاناً للأجيال على حقيقة " أنوبي" الذي لم يكن ظلاً أو وهماً ، ولكنه إنسان عَبَرَ الصحراء يوماً .



" في كثرة الحكمة كثرة الغمّ ، والذي يزيد عِلْماً يزيد حزناً " .

الجامعة

(١ : ١٨)

لا وجود للأب بالجوار كوجود الأمّ ،
لأن الأب سماء ، ولكن الأمّ أرض
الأب دوماً ناموس غياب ،
لأن الأمّ ، دائماً جسد ،
ولكن الأب ، وحده ، ربّ .
هذا السرّ في أننا نلتصق بأمّهاتنا صغاراً
ونجدُّ في طلب آبائنا كباراً .

١

استخفافنا بوصيّة الصديق – عملٌ بوصيّة العدوّ.

٢

لا تقاوم المرأة إغواء الرجل إلا لتستسلم ، ولا يستميت الرجل في إغواء المرأة إلاّ ليتخلّى .

٣

الوطن عنقاء : جسدها في قبضة سلطان ، ولكن روحها في قلب الشاعر .

٤

نستسلم لميتةٍ صغرى نسمّيها نوماً تستطيع أن تجدّد حياتنا يوماً ، ونرفض نومةً كبرى نسمّيها موتاً تستطيع أن تجدّد حياتنا دهراً .

٥

الأنجم – خُلُقٌ في قلب السماء .
الخُلُق – أنجم في قلب الإنسان .

٦

كثيراً ما يكون السبب الذي يستهوي المرأة في الرجل علّة الفراق بين المرأة والرجل .

٧

يولد ضعاف النفوس أطفالاً ليموتوا رجالاً . ويولد نبلاء النفوس رجالاً ليموتوا أطفالاً .

٨

حتّى الجحيم ، عندما يتحوّل ذكرى ، يصير نعيماً .

٩

بعض النعيم أيضاً ، عندما يتحوّل ذكرى ، ينقلب جحيماً .

١٠

يتباهى صحبان الأوطان بالانتماء إلى الأوطان ، ويتباهى صاحب الصحراء بالإنتماء إلى العدم .

١١

الصحراء - فردوس من عدم .

١٢

الصحراء للجسد منفى ، ولكن الصحراء للروح فردوس .

١٣

الماء يغسل الجسد ، ولكن الصحراء تغسل الروح .

١٤

أن نتخلّى عن الدنيا - بطولة .

أن تتخلّى عنّا الدنيا - عار .

١٥

بداية الإحساس بالشهوة - نهاية الإحساس بالجمال .

١٦

بالإفراط في إنجاب الأبناء تترهّل أجساد الأمّهات .

بالإفراط في إنجاب الأبناء تُستنزف أرواح الآباء .

١٧

زينة جسد المرأة - الحُليُّ .

زينة روح المرأة - العفاف .

١٨

البحر - حركة .

الصحراء - سكون .

١٩

ضعاف النفوس لا يحيون سعداء إن لم يجدوا من يستعبدهم .

٢٠

سجناء القضبان - طلقاء بالروح .

طلقاء القضبان - سجناء بالدنيا .

٢١

قد يعشق الرجل امرأةً دون أن يشتهيها ، لأن غاية الرجل الجَمَال . ولكن من العسير أن تعشق المرأة رجلاً دون أن تشتهيه ، لأن غاية المرأة السلالة .

٢٢

عبَثاً نطلب الحياة في البياض ، لأن البياض استنزاف .

٢٣

الدّم – حريّة تبدّت .

الحريّة – دمٌ تستّر .

٢٤

مجد الدنيا – هبة الحظّ .

مجد الأبديّة – هبة الدمّ .

٢٥

الدمّ – إبداع الجسد .

الإبداع – دم الروح .

٢٦

الحريّة نارٌ ، ولكنّها النّار التي تحيي عنقاء الروح .

٢٧

لسان النّار ، في ناموس الفراشة ، حريّة . وجدول الحريّـة ، في ناموس أهل الحنين ، حريّة .

٢٨

أجمال هي الحريّة ، أم الحريّة هي الجمال ؟

٢٩

يستبيح الرجل ، في المرأة ، الجسد ، وتستبيح المـرأة في الرجـل الروح .

٣٠

لا ينبغي أن نثق في إنسان يستحي أن يراه الناس باكياً .

٣١

نؤخذ بما نحبّ ، نهلك بما نؤمن .

٣٢

رسالة كل حياة - السعادة .
وحياة كل رسالة - التضحية بالسعادة .

٣٣

الحكمة - شعر الحكماء .
الشّعر - حكمة الشعراء .

٣٤

تصدق الروح حتى إن كذّبها العقل ويكذب الهوى حتّى إن صدّقه العقل .

٣٥

عبد يهفو إلى الحريّة أنبل من حرّ يرتضي العبودية .

٣٦

شرائع الأمم شِراكٌ لتحصين العدالة بالابتسار ، وشِراكٌ للإيقاع بالعدالة بالإكثار .

٣٧

الشرائع ، كالترياق ، قليله نفع ، كثيره ضرر .

٣٨

الجسد - الظاهر الذي يجب أن نخفيه .
الروح - الباطن الذي يجب أن نظهره .

٣٩

العالم جسد ، الصحراء روحه .

٤٠

الشجرة – بطل لا يسقط مرّتين .

٤١

الحريّة – برهان المخلوق على وجود الخالق .

٤٢

عداوة بين رجل ورجل كانت لها المرأة سبباً أسوأ أجناس العداوة ، لأنّها لا تزول حتى لو زال السبب .

٤٣

المرأة والرجل : نقيضان روحاً وجسداً ، يلتحمان ليلدا نقيضاً ثالثاً ، يحقّق وحدتهما ، وينفيهما كليهما .

٤٤

تهب المرأة نفسها متسوّلاً وهبها نفسه ، وتمنع المرأة نفسها سلطاناً وهبها مملكة ومنعها نفسه .

٤٥

رسالة الشاعر أن يُخفي ، رسالة الحكيم أن يُظهِر .

٤٦

عطب الجسد في المرأة عيب ، ولكن عيب الرجل في عطب العقل .

٤٧

الأوطان كالآباء الذين يحبّون الأبناء أضعاف حبّ الأبناء للآباء .

٤٨

بفردوس المرأة فقدنا فردوس الروح .

٤٩

سليل لم يغترب ، سليل لا يُعوّل عليه ، سواءً أكان سليلاً لوطن ، أم سليلاً لأب .

٥٠

ليس الغرباء وحدهم من ينوح على فراق الأوطان . الأوطان أيضاً تنوح على فراق الأبناء .

٥١

لا يخفى على المرأة نبض المحبّ في قلب رجل أحبّها ، كما لا يخفى على المرأة أيضاً نبض الحبّ في قلب رجلٍ أحبّ امرأةً أخرى .

٥٢

الرجل يفكّر بعقله ، والمرأة تفكّر بقلبها . هذا سرّ تفوقّ المرأة على الرجل .

٥٣

الغربة لإنسان امتلك الوصيّة - وطن .
والوطن لإنسان فَقَدَ الوصيّة - غربة .

٥٤

إذا أقبل عليك الخلْق يريدون أن يخدموك فاعلم أنّك امتلكت مالاً ، أو سلطاناً ، أو سرّاً .

٥٥

تستسلم المرأة لرجل يقول أنه يعشقها حتى لو كانت تعلم أنه لا يعشقها ، وتصدّ المرأة رجلاً لا يقول أنه يعشقها حتى لو كانت تعلم أنه يعشقها .

٥٦

حتّى خالق المرأة ينقلب للمرأة خصماً مبيناً إذا اختلس من المرأة حميمها .

٥٧

الماء – زمان سائل .

الزمان – ماء زائل .

٥٨

الخلوة عون لنا على النفس ، والخلْق عون للنفس علينا .

٥٩

ثمن الهزيمة – يقظة . وثمن الغلبة – استرخاء .

٦٠

ما يلج الفم يسمّم البدن . ما يخرج من الفم يسمّم الروح .

٦١

السجن بضمير بريء – حريّة .

الحريّة بضمير آثم – سجن .

٦٢

الجرُم – إثم في حقّ الخَلْق .

الإثم – جرم في حق الخالق .

٦٣

فقدان لذّة الدنيا رهين بإدراك حقيقة الدنيا .

٦٤

قَدَر المرأة أن تهب قلبها لرجالٍ وجدت فيهم عمق الروح ، ولكنّها لا تجد حرجاً في أن تهب جسدها لسفهاء الرجال لا لشيء إلاّ لأنّهم أكثر قدرة على تسليتها .

٦٥

الوطن ، كالأب ، لا يقسو إلاّ على السليل الذي أحبّ .

٦٦

لا تستطيع المرأة ، إلاّ أن تعرّي الجسد ، لأن الروح في المرأة بُعْد مفقود .

٦٧

عندما تستهتر المرأة تعرّي الجسد .

عندما يستهتر الرجل - يعرّي الروح .

٦٨

جسد الرجل في روحه ، روح المرأة في جسدها .

٦٩

العَرَق - دم الجسد .

الدم - عَرَق الروح .

٧٠

الصحراء ليست أرضاً نالها الحرمان .

الصحراء أرض أبادها الاستعمال .

٧١

لا فضل لسليل أمّة على سليل أمّة : لأن كل سليل في ظمئه إلى حقيقته بَطَل . وكل سليل أُمّة في خيانته لرسالته باطل .

٧٢

المسّ جنسان : مسّ ممسوس أصابته الدنيا فأنكر الروح ، ومسّ ممسوس أصابته الروح فأنكر الدنيا .

٧٣

يجب أن نتخلّى حتى لا يبقى لنا من دنيانا إلاّ الروح التي تتأمّل، والجسد الذي يتنفّس .

٧٤

استهانة إنسان بحياته في سبيل إنسان - خطيئة .

استهانة إنسان بحياته في سبيل مثال - بطولة .

٧٥

نحر أنفسنا في الدنيا - انتحار .

نحر الدنيا في أنفسنا - قربان .

٧٦

عندما تعشق المرأة صاحب مالٍ تنتقم المرأة من المال غيرةً من المال على صاحب المال . وعندما تكره المرأة صاحب مالٍ تنتقم المرأة من المال حقداً على صاحب المال .

٧٧

من يملك مالاً ، يرى في المال ربّاً . من يملك امرأة ، يرى في المرأة ربّاً . من يملك ولداً ، يرى في الولد ربّاً . من لا يملك مالاً ولا امرأة ولا ولداً يرى في ربّ الأرباب ربّاً .

٧٨

لا يجد الرجل الذي خسر معركته مع العزلة إلاّ أن يفرّ إلى أحضان المرأة .

٧٩

صاحب التخلّي ميّت بالحياة ، حيّ بالموت .

٨٠

أغلبية الأحياء أموات بالدنيا ، وأقليّة الأموات أحياء بالموت .

٨١

بحضور المال - نقع أسرى النساء .
بغياب المال - نقع أسرى الرجال .

٨٢

وجودنا في الصحراء محدود .

وجود الصحراء فينا بلا حدود .

٨٣

البرهان على الموت – الحياة .

البرهان على الحياة – الموت .

٨٤

الصحراء ، كالخلاص ، مجهولٌ مفقود .

٨٥

الصحراء – ربوبية تبدّت .

الربوبية – صحراء تستّرت .

٨٦

الصحراء – نبوّة تجسّدت .

النبوّة – صحراء تستّرت .

٨٧

نخسر أبناءً زوجناهم لبنات الأغيار ، ونكسب أبناء أغيار زوجناهم بناتنا .

٨٨

الوقت الذي نقتله يقتلنا .

٨٩

الوقت – مجهول نقتله دائماً بالقول ، ولكنه المجهول الذي يقتلنا دائماً بالفعل .

٩٠

أبحث عن الحقيقة في الدنيا ، فأُميت الدنيا وأُميتُ نفسي ، أبحث عن الحقيقة في نفسي فأحيي الدنيا وأحيي نفسي .

٩١

بالدنيا – نحن جناة .
بالأبديّة – نحن قضاة .

٩٢

الصحراء - وطن اغترب .

٩٣

الزمان - وعاء ظاهره حياة وباطنه هلاك .

٩٤

إذا كانت الحقيقة جوهراً ، فإن الحرّية كيانها . وإذا كانت الحقيقة كياناً ، فإن الحرّية جوهرها .

٩٥

الجمال - نبل الجسد .

النبل - جمال الروح .

٩٦

فقر يصلحنا ، أنبل من ثراء يفسدنا .

٩٧

الفقر الذي يصلحنا يغنينا ، والثراء الذي يفسدنا يفقرنا .

٩٨ .

الإله الذي نحبّه لا نخافه ، والإله الذي نخافه لا نحبّه .

٩٩

ماء الصحراء - الحريّة .

حريّة الجسد - الماء .

١٠٠

باللّغو - نستنزف الروح .

بالشهوة - نستنزف الجسد .

١٠١

إذا لم نجد ما نفعله بالوقت ، فإن الوقت يجد ما يفعله بنا .

١٠٢

الرجل لا يجد الوقت لإنفاق المال ، لأنه مشغول بإبداع المال .

والمرأة لا تجد الوقت لإبداع المال ، لأنها مشغولة بإنفاق المال .

١٠٣

قبر في صحراء - هجعة خالدة ، في فردوس من عدم .

١٠٤

تسمعنا المرأة حتى لو لم تنصت عندما نقول لها ثناءً ، ولا تسمعنا المرأة حتى لو أنصتت عندما نقول لها وصيّة .

١٠٥

الماء – دمٌ أضاع لونه .

١٠٦

مالٌ نهبه – مالٌ يخدمنا .
مال نمتلّكه – مال يستخدمنا .

١٠٧

من يقاتل دفاعاً عن حَرَم – غالب حتّى لو هُزم .
من يقاتل دفاعاً عن صنم – مغلوب حتى لو غَلَب .

١٠٨

فضيلة المال أنّه يستطيع أن يحرّرنا من الحاجة إلى المال .
رذيلة المال أنّه لا يستطيع أن يحرّرنا من الموت .

١٠٩

آمالنا هي التي تميتنا لا بأسنا .

١١٠

بالذاكرة – الأموات أحياء .

بالنسيان – الأحياء أموات .

١١١

الخالق بموت المخلوق زائل .

والمخلوق بالموت خالد .

١١٢

الصحراء كانت ، وسوف تكون . نحن لم نكن ، وسوف لن نكون .

١١٣

علينا أن نخفي الشقاء كما يجب علينا أن نخفي السعادة . نخفي الشقاء خوفاً من شماته الأعداء ، ونخفي السعادة خوفاً من شماتة الأخلاّء .

الفهرس

أخبار زمان المهد ١٣

١- الشروق ١٥

٢- الضّحى ٢١

٣- الرواح ٢٥

٤- الأصيل ٣٧

٥- الشفق ٤٥

٦- السُدفة ٥٢

٧- الزّلفة ٥٧

٨- الفجر ٦١

أخبار زمان الوجد ٦٩

١- البكور ٧١

٢- الهاجرة ٧٩

٣- العصر ٨٤

٤- العشي ٩٢

٥- الغسق ٩٧

٦- الجهمة ١٠٦
٧- البهرة ١١٠
٨- الصبح ١١٩

أخبار زمان اللّحد ١٢٥
١- الغدوة ١٢٧
٢- الظهيرة ١٣٦
٣- العصر ١٤٥
٤- الغروب ١٥٣
٥- العتمة ١٦٤
٦- الزلّة ١٨٦
٧- السّحر ١٩٤
٨- الصباح ١٩٨

وصايا أنوبيس ٢٠٩

مؤلفات إبراهيم الكوني

١. الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) ١٩٧٤ م

٢. جرعة من دم (قصص) ١٩٨٣ م

٣. شجرة الرتم (قصص) ١٩٨٦ م

رباعة الخسوف ١٩٨٩ م

٤. البئـر (رواية)

٥. الواحة (رواية)

٦. أخبار الطوفان الثاني (رواية)

٧. نداء الوقواق (رواية)

٨. التبر (رواية) ١٩٩٠ م

٩. نزيف الحجر (رواية) ١٩٩٠ م

١٠. القفص (قصص) ١٩٩٠ م

١١. المجوس (رواية) الجزء الأول ١٩٩٠ م

١٢. المجوس (رواية) الجزء الثاني ١٩٩١ م

١٣. ديوان النثر البرّي (قصص) ١٩٩١ م

١٤. وطن الرؤى السماويّة (قصص) ١٩٩٢ م

١٥. الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) ١٩٩٢ م

١٦. خريف الدرويش (رواية - قصص - أساطير) ١٩٩٤ م

١٧. الفم (رواية) ١٩٩٤ م

١٨. السحرة (رواية) الجزء الأول ١٩٩٤ م

١٩. السحرة (رواية) الجزء الثاني ١٩٩٥ م

٢٠. فتنة الزؤان (رواية) ١٩٩٥ م

٢١. برّ الخيتعور (رواية) ١٩٩٧ م

٢٢. واو الصغرى (رواية) ١٩٩٧ م

٢٣. عشب الليل (رواية) ١٩٩٧ م

٢٤. الدمية (رواية) ١٩٩٨ م

٢٥. صحرائي الكبرى (نصوص) ١٩٩٨ م

٢٦. الفزاعة (رواية) ١٩٩٨ م

٢٧. الناموس (الجزء الأول) ١٩٩٨ م

٢٨. في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) ١٩٩٩ م

٢٩. سأسِرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية) ، الجزء الأول ، الشرخ ، ١٩٩٩ م

٣٠. أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) ١٩٩٩ م

٣١. سأسِرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية) ، الجزء الثاني ، البلْبال ، ١٩٩٩ م

٣٢. سأسِرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية) ، الجزء الثالث ، برق الخُلَّب ، ١٩٩٩ م

٣٣. وصايا الزمان ١٩٩٩ م

٣٤. نصوص الخلق ١٩٩٩ م

٣٥. ديوان البرّ والبحر (نصوص) ١٩٩٩ م

٣٦. الدنيا أيام ثلاثة (رواية) ٢٠٠٠ م

٣٧. نزيف الروح (نصوص) ٢٠٠٠ م

٣٨. أبيات (نصوص) ٢٠٠٠ م

٣٩. بيت في الدنيا وبيت في الحنين (رواية) ٢٠٠٠ م

٤٠. رسالة الروح (نصوص) ٢٠٠٠ م

٤١. بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء ١ أوطان الأرباب ٢٠٠١ م

٤٢. بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء ٢ أرباب الأوطان (١) ٢٠٠١ م

٤٣. بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء ٣ أرباب الأوطان (٢) ٢٠٠١ م

٤٤. أنوبيس (رواية) ٢٠٠٢ م

٤٥. المحدود واللامحدود (نصوص) ٢٠٠٢م .

٤٦. المقدمة في ناموس العقل البدْئي (الجزء الرابع من " بيان في لغة اللاهوت " ٢٠٠٢ م .

قيد الإنجاز

* بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء (٥) ملحمة المفاهيم .

* بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء (٥) أسفار سومر .

أنوبيس

قال بصوت غامض :
ـ يجب أن أمضي !
أطلقت النداء الّذي أوجعني وجرى في قلبي دون أن أدري :
ـ إلى أين أيّها الإنسان ؟
ـ الأمل في أن نمضي !
أيقنت أنّ في صدر العابر يتكلّم قدر « أنوبي » ، فتساءلت :
ـ هذا صوت الحنين . أراهن أنّ ما أسمعه صوت الحنين .
ـ كلّنا أصحاب حنين .
ما فائدة أن نمضي إذا كانت الصحراء تستضيف أهل الخواء ، ولكنّها تضيق بأهل الحنين ؟
ـ وبرغم ذلك لا نريد لأنفسنا مصيراً غير مصير الحنين .
ـ صدقت . لو خيّرنا لما اخترنا غير الحنين !
ـ يجب أن أمضي !

أحسست بميل إليه ، فأخافني أن يختفي . ميل أقوى من ميل سليل « أنوبي » إلى سليل « أنوبي » . ميل أقوى من ميل المهجور إلى قرينه المهجور ؛ لأنّ ميل الحنين ، على ما يبدو ، ميل من جنس فريد ؛ لأنّ صاحبه لا يرتوي إلاّ من صاحب حنين .

